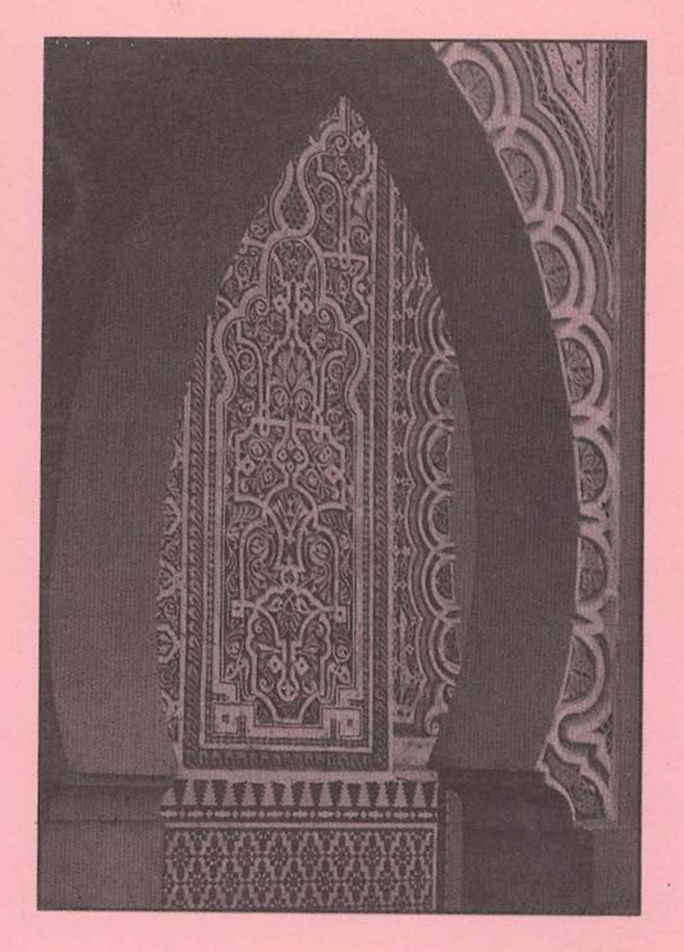
عبد الرحيم الورديغي

فــــاس
في عهد الاستعمار الفرنسي
1912 ـ 1956



ملامح من مدينة فاس

أصولها .. تغيراتها .. حالاتها الاجتماعية والسياسية

الطبعة الأولى

فـــــاس
فـي عهـد الاستعمـار الفرنسـي
1912 ـ 1956

بقلـــم

عبـد الرحيـم الورديغـي

أصولهـا .. تغيراتهـا .. حالاتهـا الاجتماعيـة والسياسيـة

الطبعة الأولى 1992

رقم الايداع القانوني
1992 / 891

مطبعة المعارف الجديدة
زنقة الرخاء ــ الحي الصناعي
الهاتف : 08/09/15 7947
الرباط

إهـــداء

إلـــى :

المرحـــوم الصديــق الوفــي والكريــم، عبــد الســلام بنعبــد الكريـــم الخطابـــي

مقدمـــة

بعدما كتب الكثير عن مدينة فاس، يتعذر الآن علينا أن نقول بأنه لم يبق ما يتكلم أو يكتب عن موضوع فاس، لكن هذا الكتاب الموجز يأتي في إبانه ليذكر بحقائق سياسية واقتصادية واجتماعية عن حالة الاستعمار الفرنسي بالمدينة الدينية للمغرب. فهي أوصاف هامة وحقيقية مبنية على معلومات موثقة كتبت بأسلوب صريح وموضوعي. فالأضواء التي يلقيها هذا الكتاب على مدينة فاس، قلب المغرب النابض، تعطي لكل مغربي الفرصة للاطلاع على تطور الاحتلال الفرنسي دام مدة قصيرة في التاريخ، وهي أربع وأربعين سنة. فآثاره السياسية والثقافية والاقتصادية والمعمارية، وجب أن نقارنها بما حدث بعد الاستقلال، وأن نُقَسِّمها عسى أن لا تسقط فاس في الحضيض العميق. بعدما عرفت ازدهارا إداريا ومعماريا ما بين 1912 و 1956 قام به المحتلون لصالحهم ثم تركوه للأهليين بعد سنة 1956 عسى أن يحافظوا عليه ويطوروه ويحسنوه حسب نماء الحاجيات في جو من النظافة والتواضع والمساواة ...

فمدينة فاس، قلب حكومة المخزن منذ قرون وقَلْبُ الملكية المطلقة، كانت مهد الثورات والانقلابات. ثم أصبحت بعد سنة 1907، هدف الغازين الفرنسيين الواردين من شرق وغرب المغرب لاحتلالها قهرا والفتك بسكانها وذلك لتحصل على ورقة موقعة من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ تحتوي على مشروع حماية السلطان وعائلته أولا، ثم إقامة إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية لمغرب بقي على هامش التطور العالمي منذ قرون بسبب انعزاله المفروض.

ومدينة فاس هي صنيعة الحضارة الاسلامية بالمغرب، لأنها لم تكن موجودة قبل عقبة بن نافع سنة 683 بعد الميلاد ولا قبل موسى بن نصير سنة

708، اللذان حملا الإسلام إلى المغرب، فبقيت إلى الآن تعتبر مهد الحضارة المغربية العربية الاسلامية حيث من ازداد بها يكون غالباً ذا بشرة ناصعة وعينين واضحين ولهجة معروفة وحركات رشيقة، وحضري بكل ما في الكلمة من معنى حيث يكون الفاسي إما موضوع الاعجاب أو الاحتقار من طرف مواطني المدن الأخرى ...

لهذا عكف الكتاب أولا على توضيح أصول فاس وثانيا على تغيراتها على يد الحاكمين الفرنسيين في جميع الميادين وثالثا على تطور سكانها الأهليين مع الاحتكاك بما استوردوه الأوروبيون من عادات وتقاليد سياسية واقتصادية واجتماعية غريبة عن المجتمع المغربي التقليدي القديم.

المؤلف

الفصـــل الأول

فـــاس،
هــذا البلــد الأميـــن ...

تأسست مدينة فاس في بداية القرن التاسع الميلادي في عهد ادريس الثاني ابن ادريس الأول حفيد سيدنا على ابن أبي طالب وسيدتنا فاطمة بنت النبي ﷺ، وذلك في موقع استراتيجي هام ما بين حمة مولاي يعقوب وحمة سيدي حرازم، وقرب هضبة وطريق الوحدة ومدينة صفرو من جهة، وقرية إيموزار الكندر الأطلسية التي تؤدي إلى بحيرات وضايات، منها ضاية حشلاف وضاية أفوغاع ...

ويحكى أن سبب تأسيس مدينة فاس هو أنه لما اكتشف ادريس الثاني بأن رحاب مدينة وليلي قد ضاقت برعاياها، طلب من وزيره عمير أن يبحث عن مكان لائق لعاصمة، فلما لم يجده، بحث ادريس الثاني بنفسه، فوجد المكان اللائق بها.

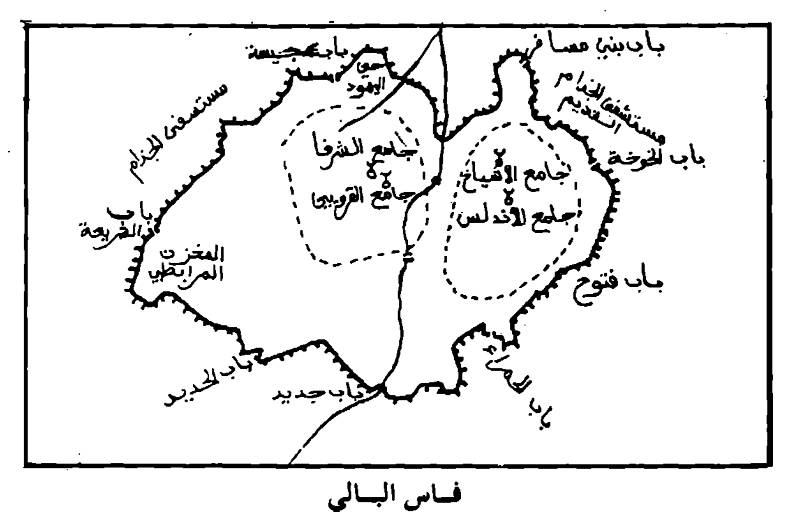
وقد وصف المؤرخون فاس بعدة أوصاف وأعطووا عنها تفاصيل مدققة عن المدينة وعن ازدهارها الحضاري، فقد ذكر ابن خلدون مثلا بأن ادريس الثاني الذي أسس فاس قسمها إلى عدوتين شمالية وجنوبية تفترقان بنهر، فسكناهما قبيلتا زواغة وبني برغيش، لكن بعد انحلال الأندلس، إلتحق بفاس مئات العائلات المهاجرة من مدينة قرطبة، فسكنوا العدوة الجنوبية، فاتخذت اسم عدوة الأندلسيين، كذلك بعد أن حل الاضطراب بتونس، التجأت ثلاث مائة عائلة من مدينة القرويين إلى فاس، فسكنت العدوة الشمالية سميت منذ ذلك الحين «عدوة القرويين» ...

وقد ازدهرت مدينة فاس أيام ادريس الثاني ومن خلفوه حيث بني في عهدهم مسجد القرويين على يد فاطمة الفهرية، ثم عاشت فاس كذلك في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، فدفن فيها جل ملوك هذه الدول وخصوصا من المرينيين والعلويين، ومن جملة الآثار التي ترتكتها هذه الدول، نجد مدارس فاس الجديد والعطارين والبوعنانية والشراطين وباب الغيسة ومساجد كمسجد الأندلسيين ومسجد مولاي عبد الله وضريح مولاي ادريس ومسجدي الرسيف والديوان، فيزورها اليوم السواح القادمون من كل نقط العالم ...

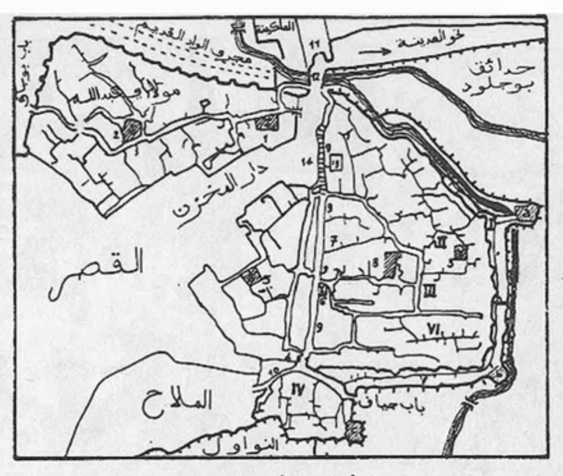
التقسيم الجغرافي للمدينة

وفي الحقيقة، فإن مدينة فاس تنقسم إلى مدينتين، الأولى تسمى فاس البالي وهي التي بناها المولى ادريس وأبوابها هي «باب افتوح» و «باب الخوخة» و «باب سيدي ابو جيدة» و «باب الغيسة» و «باب المحروق» و «باب ابو جلود» و «باب الجديد»، فتوجد أشهر المساجد والمدارس بفاس البالي، منها مسجد الأندلسيين والقرويين ومدرسة العطارين والمدرسة البوعنانية وجامع مولاي ادريس. وفي فاس البالي، توجد كذلك باب البطحاء وفي حدودها توجد حدائق ابوجلود.

— الموقع الجغرافي لمدينة فاس —



فاس البالي

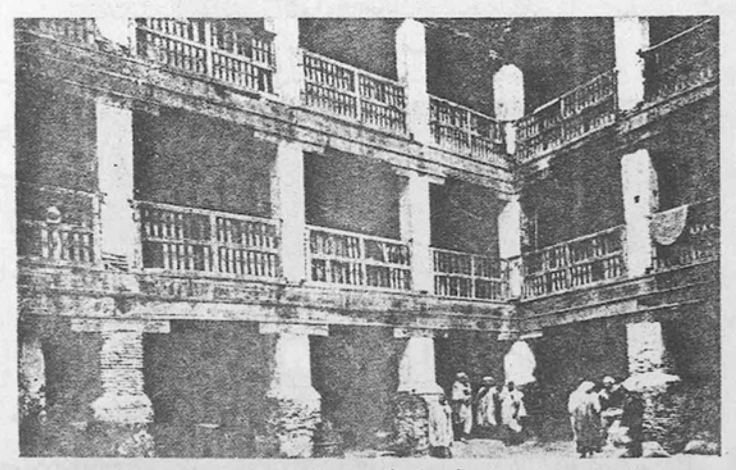


فـاس الجديـد

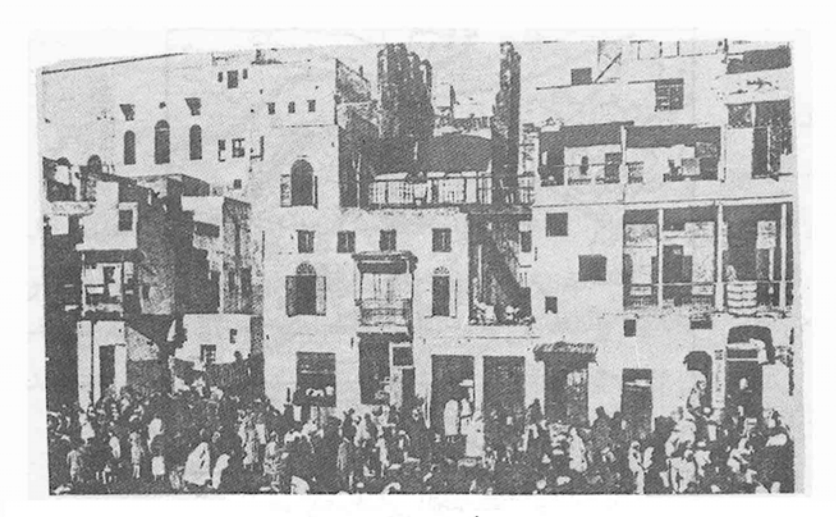
أما فاس الجديد الذي أسس في عهد المرينيين، فنجد فيه زيادة على القصر الملكي، المسجد الكبير ومسجد مولاي عبد الله والمكينة.

وخارج أسوار هذين المدينتين، نرى المدينة الجديدة التي تسمى فاس الدبيبغ حسب اسم القصبة التي بنيت فيه على يد السلطان العلوي مولاي عبد الله، ولا زالت في حوزة الدولة المالكة ...

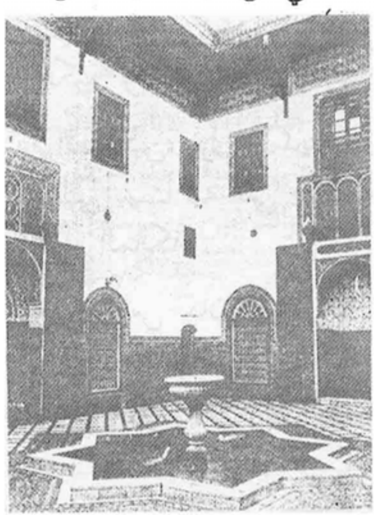
وهذا التقسيم الجغرافي لفاس كان مقبولاً قبل دخول الفرنسيين الذين حولوا وأضافوا أحياءا أخرى غيرت معالم فاس، وخصوصا في فاس الجديد الذي يبعد بسبع كيلومترات عن فاس البالي كما أراده المرشال الفرنسي ليوطي، لكن



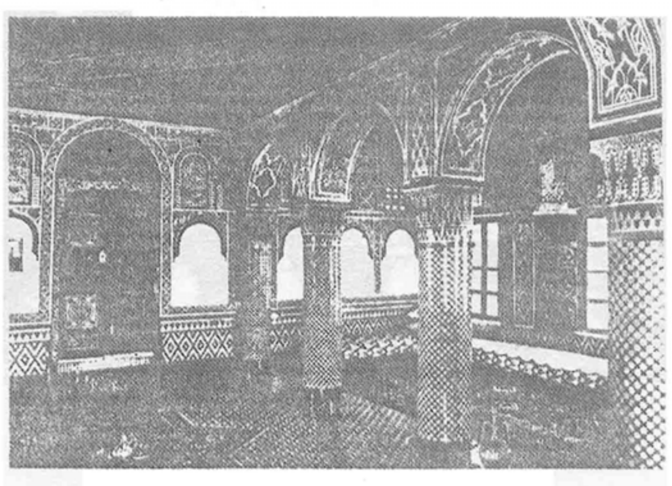
فندق فاسـي قديـم



حي من أحياء مدينة فاس



ـ دار بورجوازي مسلم ـ



ـ دار بورجوازي يهودي ـ

آثار فاس بقيت على حالها، فمثلا :

باب ابو جلود، التي يؤطر قوسها صومعتان، **والمدرسة البوعنانية** وهي متحف الفن المريني بأرضه المسقفة بأحسن الرخام وجدرانه المغلفة بأتقن الرسوم الجبصية، ومدرسة العطارين ثم جامع القرويين، وهي أول جامعة دينية في العالم على شاكلة جامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس.

ويرجع أصل تأسيس جامع القرويين إلى يوم 30 نونبر 859 م. حيث اقتنت أرضها الشابة فاطمة الفهرية من مالها الخاص وشرعت في بناءها، وقد اعتنى بهذا الجامع سلاطين مرابطون وموحدون ومرينيون وسعديون وعلويون إلى يومنا هذا، فللاطلاع بتدقيق على حياة جامعة القرويين، يستحب قراءة السيد ديلفين الذي نقله عن شهادات أدلى بها طلبة بالجامعة الفاسية.

نضيف إلى هذه الآثار، المدرسة المصباحية ومدرسة الشراطين والقيسارية وغيرها ...

الفاسـي في التاريـخ الحديـث المغربـي

فاس هي مدينة المخزن، أي مدينة السلطة الملكية، الرمز الامبراطوري الذي لازال جاثما عليها وعلى سكانها الذين يتركبون من البربر والعرب والأندلسيين المهاجرين من قرطبة ابتداءا من القرن التاسع الميلادي، فمنهم المسلمون واليهود الذين أعطوا صبغة لسكان هذه المدينة ...

فالمراد اليوم أن تكون فاسيا، هو أنك قد ازددت ازديادا حسنا، وتنتمي إلى عائلة كبيرة وقديمة، وغنية في بعض الأحيان، ولديك جلد أبيض وعينان واضحان، ولهجة معروفة وتكون حضريا، ولكنك تعيش على منتوجات البادية وتكون رهيف الاحساس، إذن مناصرا للملكية وزبونا لها، ومتمتعا بامتيازاتها. فالفاسيون هم موضوع الاعجاب يهابون أو يحتقرون أو يكرهون. والفاسي الحقيقي يعيش في دار تقليدية تدور على شابهة الدار الرومانية حول وسط يكون قلبها ... فكل البيوت متفتحة عليها، فهو موضع المرور ولقاء سكان الدار، فهناك الصالون المغربي الطويل المساحة وهناك بيت الاقامة المخصص للضيوف، فيمكن أن يؤكل فيه وينام فيه، فالتأثيث عبارة عن تحف خشبية

عليها لحاف ومخدات مستقيمة، ففي وقت الأكل، توضع منضدات مستديرة تغلف بالبلاستيك لتوضع وسطها صحن يأكل منه الضيوف بالأصابع بعد غسل الأيادي قبل وبعد الأكل، وينتهي الأكل بشاي من النعناع يسكب في كؤوس مزخرفة.



وجـه فـاسـي



الفاسيون يتمتعون أيام الحماية الفرنسية
بأكل الطواجين الشهية

وفي كل دار فاسية، هناك بيت للذخيرة يحتوي على القمح والزيت والزيتون والخليع ...

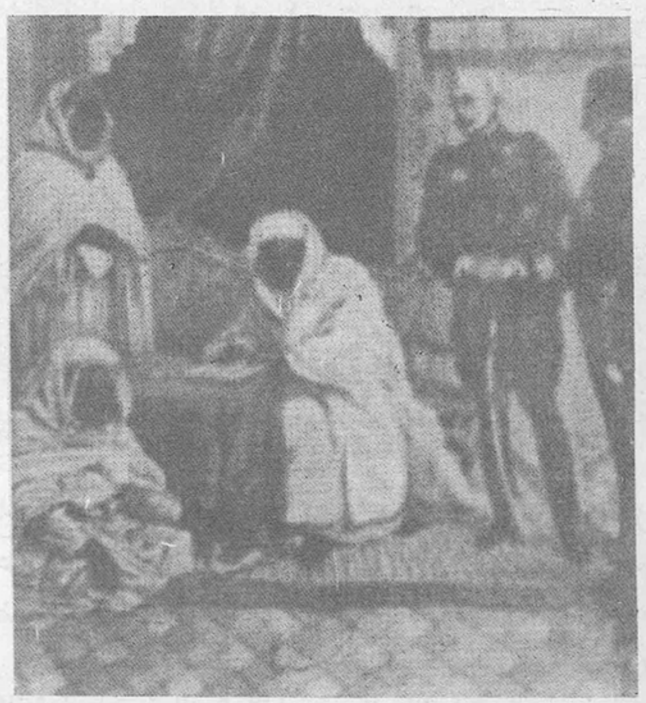
أما الفاسيون الآخرون فهم خليط من قرويي الريف والأطلس المتوسط طردهم البؤس، فهناك السوسيون والفيلاليون يتعاطوون لتجارة المواد الغذائية وللحرف المختلفة، ثم يوجد في القمة الاجتماعية المثقفون والفنانون والاسلاميون المتطرفون الذين يرفضون كل عصرنة، ويعيشون في مدينة ازدحرت اليوم بالجامعة وبحركة الطلاب وبمدن القصدير المتناثرة تحاول السلطة اليوم محوها ...

لكن هناك فندقان هامان يتوزعان الزبناء الأغنياء المستضيفين على نفقة الدولة أو الملك، فهما قصر الجامعي الذي تحسنت جنباته تحسنا بذخا، وفندق المرينيين الذي تجدد تجددا ضخما براقا حيث ترى منه الشمس تغيب فوق قبور المرينيين، وقد حرقته الجماهير البئيسة سنة 1990 ورُمِّمَ فيما بعد لأسباب غير معروفة ...

الفصـــل الثانـــي

ظـروف إبـرام عقـد الحمايـة الفرنسيـة

قبيل سنة 1912، حاول الفرنسيون غزو مدينة فاس قبل أن يتدخل الألمان لاحتلال المغرب بإغراء حكامه، لكن بسرعة من البرق، وقع السلطان مولاي عبد الحفيظ (الذي كان يدعي بأنه سلطان الجهاد ضد المسيحيين) مع الفرنسيين معاهدة الحماية لعائلته وللمغرب ضد ألمانيا التي كانت تنوي الاستيلاء على ثرواته المعدنية والفلاحية، فلم يقبل المغاربة في غالبيتهم هذا التوقيع، وكانوا مفترقين ما بين العزيزيين والحفيظيين. فبدل المغاربة كفاحهم في سبيل الاستقلال ابتداءا من عقد الحماية، وخصوصا الجماهير الفاسية الفقيرة التي أهرقت دماءها بغزارة، منها طبقة الصناع والعمال، فكانت بداية البعث الوطني للكفاح السياسي بهذه المدينة.



توقيـع السلطـان مولاي عبد الحفيـظ على عقـد الحمايـة

محتــوى عقــد الحمايــة

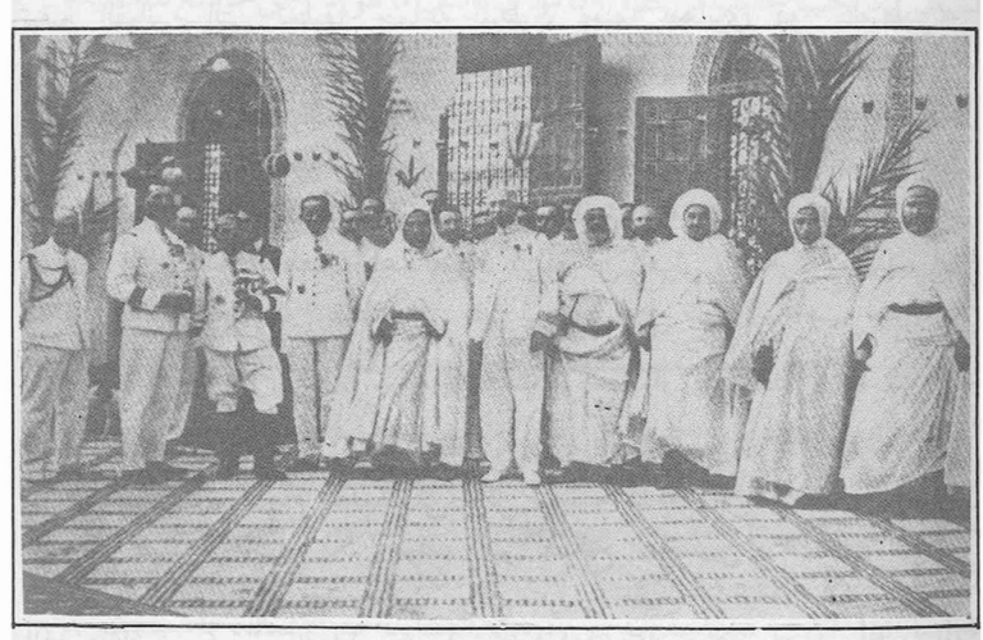
إن عقد الحماية الفرنسية على المغرب يتشابه مع عقد «باردو» الذي نظم الحماية الفرنسية في تونس سنة 1881، وينص عقد فاس على أن تحمي فرنسا الدين الاسلامي وأن تحترم الهالة التقليدية للسلطان، فتتعهد فرنسا بأن تعمل على مساندة صاحب الجلالة الشريفة ضد كل خطر يهدف شخصه أو عرشه أو يمس بسلامة دولته، كذلك ينص عقد الحماية على تطبيق إصلاحات سياسية وإدارية واقتصادية في بلد متأخر على عتبة القرن العشرين بثلاثة قرون حيث أن دولته وإدارته تذكر بالادارات القائمة في القرون الغابرة ... وخصوصا إذا ما تمحصنا في اختصاصات العامل والمحتسب والقاضي ومقدمي الحومات التقليدية ...

ربيــع فــاس الجحيــم

ففي يوم 17 أبريل 1912، أي ثمانية عشرة يوما فقط على توقيع عقد الحماية، ثار طابوران من الجيش المغربي ضد ضباطهم الفرنسيين المؤطرين بدعوى رفض تعليماتهم، فذهب العساكر المغاربة إلى القصر السلطاني حيث لم يقع معهم أي حوار مباشر. فرجعوا إلى ثكناتهم وقتلوا جميع ضباطهم الفرنسيين بعد مطاردتهم في المدينة القديمة.

ويحكي الشهود بأن السكان (وفيهم النسوة التي كانت تولول) كانوا يصفقون، ويساندون المتظاهرين والثوار الذين لم يكن لهم لا رئيس ولا مفكر لتحريكها. فأيدت أوساط أصحاب الحرف المهنية والعمال ضباط الجيش المغاربة، معتقدة بأن السلطان مولاي عبد الحفيظ سيبقى دائما متعهدا لوصيته كسلطان الجهاد ضد الفرنسيين عندما ثار على شقيقه مولاي عبد العزيز بمساندة الحاج المدني الجلاوي بمراكش، خديم فرنسا، لكنه تبين في الحين أنه ليس إلا عاهلا إسميا فاقدا لكل سلطات السيادة، وأن بلاد المغرب بيعت وأصبحت قضية تجارية وصناعية حسب المفهوم الاستعماري، فالسلطان الحقيقي، هو المقيم العام الفرنسي الذي عينته حكومة باريس، ولديه السلطات العسكرية الكافية لمواجهة الثورة الفاسية وكل الثورات المغربية المرتقبة ...

ولما لم يكن السلطان مولاي عبد الحفيظ بجانب الشعب الفاسي ولا صريحا مع فرنسا، فقد اختبأ في قصره وانصرف يشاهد الأحداث من بعيد ... فدخل ليوطي بعساكره مدينة فاس يوم 26 مايو 1912 وهو يتمتع بجميع السلط، فهو بصفته مقيم عام للجمهورية الفرنسية بالمغرب، الرئيس الأعلى للقوات الفرنسية المحتلة للمغرب. فوجد مدينة فاس محاطة بقبائل معادية لفرنسا. ففي اليوم الذي قدم فيه أوراق اعتماده للسلطان مولاي عبد الحفيظ، أمر قواته وعلى رأسها الكولونيل غورو بالدفاع عن أحواز فاس وبتطويق القبائل المهاجمة. ويقال بأنه رقى غورو يوم فاتح يونيو في رتبة جنرال وكذلك رئيس إقليم فاس في نفس اليوم بسبب نجاحهما في الهجوم على قبائل أحواز فاس.



السلطان الجديد مولاي يوسف بالاقامة العامة الفرنسية بفاس يوم 14 يوليوز 1912

ولما استمع المقيم إلى مطالب الشرفاء والأعيان والعلماء عن مشاكل الأمن والنظام، أمر ليوطي بحل جيش السلطان الذي أحدث الفتن في شهرءابريل إثر التوقيع على عقد الحماية، وطلب بانسحاب مولاي عبد الحفيظ من العرش لصالح شقيقه مولاي يوسف الذي اشترط تغيير العاصمة الفاسية بمدينة الرباط نظرا لرفض الرأي العام الشعبي الفاسي توقيع عقد الحماية ...

عمـل ليوطـي فـي المغـرب

فكان من عمله تغيير شخصية السلطان الذي لم تكن له سلطة إلا على توقيع القوانين التي تمليها جماعة ليوطي، ومنها «هانري دو كاسطري» و «هانري كايار» و الجزائري عبد القادر بن غبريط» و «سان طولير»، لأنه لا ننسى بأن ليوطي، كان الملكي الفرنسي المحافظ عن اقتناع أو عن مزاج. فقد اكتشف بأن المغاربة وجب أن يكون ضروريا لوحدتهم، سلطان، وخصوصا لدى النخبة المثقفة الفاسية والنخبة التجارية الفاسية لتعيش في الهدوء. ويمكن للمغاربة أن ينتقدوا السلطان وأعماله وأن ينزلوه عن العرش ولكنه لا يمكنهم أن يتخلوا عنه، كذلك أن السلطان في نظر ليوطي، رجل ضروري وجب تشريفه، فهو الذي يشيع قرارات الحماية عبر رعاياه بصفتهم مسلمين ومغاربة.

ولهذا، قرر ليوطي نزع السلطان مولاي عبد الحفيظ عن العرش نظرا للالتزام هذا الأخير أمام العلماء في أوائل تنصيبه الدفاع عن استقلال المغرب بالجهاد ضد الأجانب، لكن موقفه تغير لصالح الفرنسيين بعد هياج القبائل البربرية وسكان فاس. فقد عوض ليوطي عبد الحفيظ بشقيقه مولاي يوسف الذي كان يسكن في الرباط بحي أبوقرون، ولهذا كان مولاي يوسف أقل ثقافة وأقل ذكاءا من شقيقه مولاي عبد الحفيظ وأقل طامع في الحكم المطلق. فاستخدمه الفرنسيون في أوائل عهده ضد الباشا المدني الجلاوي، وفي آخر عهده سنة 1925 بفاس ضد ثورة محمد بنعبد الكريم الخطابي الريفي.

سلطـــان مقبـــول

لكن مولاي يوسف تعهد بفتح مدارس عربية وفرنسية، كثانوية مولاي ادريس بفاس، فقام بزيارة معرض فاس الدولي الأول سنة 1916 وبتدشين الطريق الأول المزفت ما بين فاس والمحيط الأطلسي سنة 1917، وطريق السكة الحديدية ما بين فاس والرباط في شهر أبريل 1923.

ولم أذكر سابقا بأن السلطان مولاي يوسف بايعه الفاسيون يوم 19 غشت 1912 بجامع ابوجلود وسط فرحة كبرى حيث تليت بيعة حررها آنذاك الفقيه عبد الله الفاسي، وصادق عليها العلماء باستثناء السيد مولاي ادريس بن عبد الهادي الذي ادعى «بأن تخلي مولاي عبد الحفيظ عن الحكم بسبب المرض ليس سببا حقيقيا في نظره، وأن مولاي يوسف ما هو إلا رجل خاضع للحماية».

فقد ذكر كذلك ليوطي عن مولاي يوسف في رسالة وجهها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية «ألبير دومان» بأنه قد وضع حول السلطان مولاي يوسف مغاربة شيوخ مقبولين، ثم أقام صلاة الجمعة الرسمية بحفلها الرسمي، ونظم الحفلات بمناسبة الأعياد الدينية المغربية احتراما للتقاليد المحلية وأنشأ النشيد والعلم الوطني [1].

والحقيقة أن ليوطي أقام هذا النظام الصوري ليستتب النظام للفرنسيين حتى يشرعوا في استغلال الفلاحة والغابات والصيد البحري والفوسفاط، ولهذا السبب، ورد المعمرون بكثرة من كل حدب وصوب، وأخذ المغاربة يحسبون أنفسهم في بلد أجنبي، فاختار المعمرون أجود القطع الفلاحية التي لم تكن محروثة طول وجودها وخصوصا في ناحية «رأس الماء» بفاس، فصنعوا ضيعات لا مثيل لها في العالم من حيث الانتاج والشكل، وأصبح المغرب يصدر القمح لفرنسا التي كانت محتاجة إليه في حروبها المتتابعة مع الألمان، فأصبحت جل نواحي مدينة فاس لديها ضيعات فلاحية قل نظيرها شمال وجنوب وشرق وغرب المدينة في طريق إيموزار الكندر وطريق مكناس وطريق تاونات وطريق مولاي يعقوب...

فلننظر اليوم ما حل بها من خفض الانتاج عندما سلمت إلى أيادي غير كفؤة ومرتشية، وليس لها ضمير مهني ووطني عميق ...

---

1. هذه المعلومات استنبطت من كتاب «في ظل المرشال ليوطي لديدي مادارس الكاتب الخاص لليوطي، صفحة 84.

الفصـــل الثالـــث

منجــزات ليوطــي بفــاس ونواحيهــا
مــن سنــة 1913 إلـى سنــة 1925

تعامل الفاسيون بجميع أصنافهم مع إدارة ليوطي، فقربوه وتحببوا إليه كاليهود المغاربة لأنهم اكتشفوا فيه رجل العمل ورجل الانشاء والابداع ورجل الانقاذ من الحكم الاقطاعي الذي كان ينهب ثروات آبائهم بدون حجة أو حكم عادل أو دون مقابل ... فشرع في بناء وإصلاح مدينتهم العتيقة وفي تشجيع المعمرين المغاربة والفرنسيين في خلق ضيعات نموذجية واسعة في السهول التي لم تكن سابقا تزرع. فشعر الفاسيون في أوائل الحماية بأن المجاعة التي كانوا يعيشونها على إثر جفاف أو اضطراب أمني، بدأت تتقهقر وخصوصا أن الفلاحين الصغار بدؤوا يحصلون على قروض بدون فائدة على يد الشركات الاحتياطية (الصوكاب) التي أنشأها ظهير 1913 حيث أبدعها الفرنسيون في جل مستعمراتهم لصالح الأهليين.

فبدأ الفلاحون في نواحي فاس يحصلون على بذور صالحة واكتشفوا بأن الحكام الفرنسيين أنشأوا مدخرات وسيلوات في شكل شركات تعاونية للحبوب (السكام والصيما .S.C.A.M. et C.M.A) التي لا زالت حية في المغرب المستقل وخصوصا في طريق مولاي يعقوب بفاس.

بنايــات ليوطــي

فبنى ليوطي في الحين قطارا حديديا لنقل العساكر من فاس إلى الرباط وإلى طنجة، ففتحت طرق ثانوية لنقل المواد الفلاحية لضيعات المعمرين الجدد. وقد تحقق كل هذا في أقرب أجل، لأن ليوطي كان يكره البيروقراطية

والملفات الادارية الطويلة، فكان يحب العمل المداوم الذي يتطلب سهر الليالي، لأنه كان لا ينام بنفسه إلا أربع ساعات في الليل، ويذكر دائما بأن المواطن الفرنسي الحقيقي هو الذي يخدم بجد مستعمرات بلاده لتكون امبراطورية إنسانية عادلة لأنه منذ نعومة أظافره،كان ذكيا ويحب أن يكون دائما يسود في قريته طوري بفرنسا ...

فلا زالت أحياء دار المهراز وباب افتوح وباب اجلود تتذكر العمل المثير الذي قام به ليوطي لصالح فاس بعدما أقام بها نظاما سياسيا مستقرا بالمغرب بعد خلع السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي أصبح متذبذبا في الحكم وتعويضه بشقيقه مولاي يوسف الذي كان يسير على هداه، ويوقع كل الظهائر والرسوم الوزيرية التي يقترحها ليوطي.

فما بين سنة 1913 (وهو تاريخ وصول ليوطي إلى المغرب) وسنة 1925، طفق ليوطي ينجز إصلاحات قل نظيرها في المغرب العتيق، فقد هدأ القبائل على طريقة أسلوبه وهو «إظهار القوة بتحاشي استعمالها» ثم خلق جيشا مغربيا يتكون من المحلات والصبايحية والرماة وأنشأ العلم المغربي من اللون الأحمر والنجمة الخضراء وطبق لحن النشيد الوطني المغربي الحالي، ووضع الهاتف لصالح الاستعلامات، وفتح طرقاً بين القبائل ووضع الاسعاف الطبي وخلق الأسواق التجارية حسب فكرته القائلة : «تسبيق النشاط التجاري على النشاط الفكري».

طبق ليوطي هذه الاصلاحات وغيرها مع احترام السلطة الروحية والدينية للسلطان الجديد وكذلك التقاليد المحلية باحترام سلطة القواد الكبار الذين كانوا يسمون بأسياد الأطلس الموالين لفرنسا، والذين يستعملون الهراوة الغليظة ضد رعاياهم. لأن ليوطي كما هو معروف، رغم أنه كان مسيحيا متعبدا يحترم الاسلام ويقدسه ...

ولقد نجح ليوطي في تطبيق هذه الاصلاحات بوحده لتنجح فرنسا في غزو المغرب بأتمه، وهي سياسة مبنية على احترام الدين الاسلامي وحكمة المغاربة الكبرى، لا بالمس بشعوره العميق الذي عاش عليه قرونا مديدة ...

ليوطـي، الاداري الحـازم

خلق ليوطي سياسة إدارية ناجحة قضت على إدارة عتيقة مبنية على الفوضى، فكانت إدارته تتصف بالعمل السريع بخلق مديريات (التي هي وزارات الآن)، فقامت بأعمال خالدة في جميع الميادين وخصوصا في الميدان الصحي تحت رعاية الدكتور كولومباني الذي اختاره ليوطي بنفسه، وفي الميدان المالي الذي كان يسيره بحنكة فرانسوا بييطري، هذا الرجل الذي كان يحقق توفيرات هامة بحيث أن ميزانية المغرب المالية كانت دائما متوازية لا نقص فيها ولا عجز، كما يحصل الآن بالمغرب المستقل حيث لا تتبع سياسة تقشفية بكل ما في الكلمة من معنى.

ولما فتح ليوطي أبواب التعليم من الابتدائي إلى معهد الدراسات العليا الخاصة بالمغاربة، أكانوا مسلمين أم يهود، هرع الفاسيون الأولون في المغرب (رغم دعاية بعض المسلمين على تفرنس وتمسيح الأبناء المغاربة) ليكونوا في مقدمة المتعلمين المثقفين وليصبحوا في مقدمة التجارة والفلاحة بالمغرب، فأضافت الاقامة العامة الفرنسية معاهد للتعليم التقني وشيدت معاهد ومتاحف لحفظ الآثارات والحفريات والفنون الجميلة كمعاهد الموسيقى والرقص بالمغرب التي لم تكن معروفة بالمغرب العتيق.



الرجل المصلح للمغرب وللاستعمار الفرنسي،

المرشـال هوبيـر ليوطـي

والأحسن ما قامت به جماعة ليوطي هو إنشاء مجموعة من المهندسين لاستخراج معدن الفوسفاط بعد التنقيب عليه سنة 1921 واستغلاله لا على يد خواص احتكاريين كان قد رفضهم ليوطي بنفسه، بل لصالح الميزانية العامة للمغرب، وهذا العمل وجب أن يشكر عليه ليوطي، لأن المغرب لا زال يعيش إلي يومنا هذا على هذه المادة الخام وعلى مداخيله التجهيزية سابقا والتسييرية الآن بسبب سوء التدبير والتبذير المكشوف المفضوح ...

ليوطي، الشعبي

على ضوء هذه المنجزات، أصبح ليوطي محبوبا من طرف المغاربة الذين كانوا يعيشون في قرون إظلامية تتسم بالفتنة وعدم وجود دولة قارة تتحكم في مختلف ربوع البلاد كما كان ذلك في عهدي الحسن الأول ومولاي عبد العزيز ...

أما الشعب الفاسي، فقد كان يتعشق ويتحبب لليوطي، فهاكم ذكرى مسجلة بفاس على حساب ليوطي حيث أصابه داء الكبد فور اجتماعه مع حاكمي الجزائر وتونس، فحمل بأشق الأنفس إلى قصر ابوجلود بفاس، وقرر الأطباء القيام بعملية جراحية لصالحه، لكن بباريس. فلما شاع الخبر بالمدينة، وفد عليه الفاسيون (وكان يستقبل شخصيات أنجليزية) في شكل جيش عرمرم من أعيان وعلماء وشرفاء وأئمة فاس، حاملين بعضهم أعلام ورايات مختلفة الألوان، فاصطفوا تحت نوافذ غرفة المريض العليل، وهم يذكرون «اللطيف»، وهو الدعاء الذي ينادى به أمام تهديدات خطيرة.

فلأول مرة، يذكر كاتبه الخاص «ديديي مادارس» في كتابه «في ظلال المرشال ليوطي»، أقيمت صلاة الدعاء لله سبحانه وتعالى عسى أن يشفي المريض الغير المسلم.

ولما سمع ليوطي بضجة الجمهور الفاسي، طلب أن يقدم إلى بيته إمام جامع المولاي ادريس، فحمل هذا الأخير شموعا كبرى ووضعها قرب فراش العليل ...

ولقد قال له الامام الفاسي بالحرف : «إننا متيقنون بأنكم ستشفون، لأن الشعب المغربي قاطبة طلب منا أن نحمل إليكم هذه الشموع التي وردت من قبر مولاي ادريس بنفسه ...»

ولقد تحسنت فعلا صحة المرشال ليوطي بعد اقتباله لجموع الفاسيين، وقبل أن يخرج الامام من بيته، طلب منه الأعيان والعلماء أن تكون أول نزهته هي زيارة حرم مولاي ادريس تشكرا لله على ما أمده من شفائه. لكن ليوطي بصفته نصراني، أجاب بأنه سيذهب أولا إلى الكنيسة، ثم وعد بأنه سيزور مولاي ادريس. وحدث ما وعد به حيث وصل أمام الحرم الشريف، فطلب منه الأئمة الدخول، فرفض قائلا : «حرمت منذ زمان على كل الفرنسيين الدخول إلى مساجدكم، فلا تجعلوني أن أخرق القاعدة التي وضعتها أنا، لأنكم ستصبحون قائلين لآخرين بأن ينهجوا نفس سبيلي اليوم».

وأمام إلحاح الأئمة الفاسيين، قبل ليوطي تنفيذ طلبهم، فوضع قدما داخل الحرم، وترك القدم الآخر خارجه ...

كذلك أنه عندما أقيل ليوطي سنة 1925 من طرف حكومته بسبب عدم استعمال القوة في القضاء على ثورة الريف، وقعت ضجة نفسانية وسط الأوساط الفاسية المحظوظة، لأنها كانت تتخوف من مغبة استيلاء الريفيين على مدينة فاس.

لذا ذكر أحد رؤساء الزوايا باسم مسلمي فاس بقوله : «لقد أثرت على حياة أجدادنا عظمة مولاي ادريس، وستبقى لنا يا ليوطي أنت حماية لمدينتنا ورمز صفاوتنا الدينية، لكن أبناءنا سيؤرخون تاريخهم ابتداءا من ليوطي، باني مجد المغرب ...» فأثلجت هذه الكلمات الصادرة من قلب زعيم فاسي، فؤاد ليوطي قبل أن يغادر مدينة البيضاء إلى فرنسا على ظهر باخرة «أنفا» لشركة «باكي»،هذا مع العلم أن ليوطي رجع إلى شقته بقرية طوري، فارغ الجيوب حيث كان مدينا للخزينة العامة الفرنسية بضرائب حضرية لم يسددها في حينها ...

وقد احتفظ جيل طويل في فاس بذكرى طيبة عن ليوطي، فكانوا يذكرون عنه بأنه كان رئيسا عظيما ويحبهم [1] وبأنه بنى السلم والأمان والازدهار بالمغرب، بالمملكة العلوية الشريفة مع احترام تقاليد وعادات السكان، باتصال متين مع العاهل المغربي، لأنه كان يعترف بوجود شعب ودولة بالمغرب [2].

---

1. في ظلال المرشال ليوطي،صفحة 106 لديدبي مادراس.
2. حسب اعترافه في المنشور المؤرخ في 18 نونبر 1920 بصفته المرشال الاقطاعي الملكي الصافي المحب للنظام البائد في فرنسا.



زيارة تعزية للسلطان محمد بن يوسف إلى قرية طوري الفرنسية
غـداة وفـاة ليوطـي سنــة 1934

لقد عرفت فاس الهدوء والطمأنينة في مدينتها وقراها وفي كل المغرب، في السهول والجبال ومن شواطئ البحر إلى تخوم الصحراء. فاسم المرشال ليوطي كان في نظر الفئة المفقهة بفاس يختلط بفاس لأنه هو الذي أرجع الهدوء إليها بعدما كانت تعيش في الفتن بسبب المؤامرات والانقلابات في القرون الماضية. فقد كان يحب الشباب الفاسي والمغربي وينظم له عشاءات فاخرة، لذا كان يتبنى الفكرة بأنه كان يضمن تطور الحماية الفرنسية إلى استقلال المغرب، لكن الانزعاج الذي حدث في شمال المغرب وبسببه عجرفة الاسبان وعدم احترامهم لعادات سكان الريف، وقيام ثورة عارمة زعزعت عالم بداية القرن العشرين، وهزت أركان الحماية الفرنسية بالمغرب التي كانت منشغلة في القيام بإصلاحات جذرية داخل المغرب في الفلاحة والصناعة والمعادن ...

الفصـــل الرابـــع

فـــاس فـــي مهـــب الحـــرب الريفيـــة

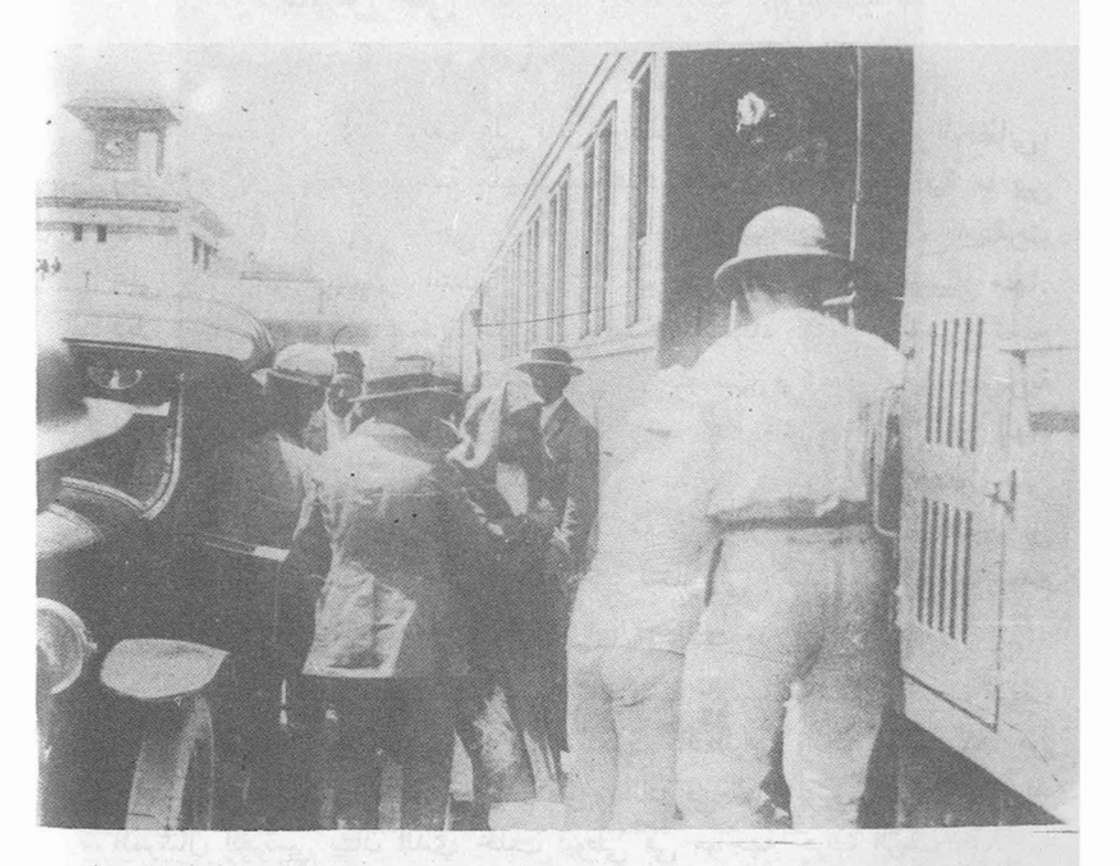
هبت ريح حرب الريف على فاس، وبطلها محمد بنعبد الكريم الخطابي، رجل قاضي وصحافي بمدينة مليلية المحتلة. فتقدمت الجيوش الريفية ما بين 1925 و 1926 إلى نواحي مدينة فاس باحتواء قبيلة بني زروال، فاستقرت على بعد أربعين كيلومتر، انتظار إشارة قيادتها لغزو فاس وطرد الفرنسيين منها. لكن ليوطي بمساندة المخزن الشريف والعلماء والشرفاء والتجار الفاسيين نجح في ترهيب وتجميد تقدم القوات الريفية التي انتظمت في صفة دولة جمهورية بحدودها مطالبة باعترافها لدى هيئة الأمم بجنيف. فشرع ليوطي في إلهاء الريفيين بفتح مفاوضات سياسية بتاوريرت ووجدة حتى يتسنى له الحصول على تنسيق العمل الحربي مع اسبانيا وعلى مساعدات أكثر من فرنسا، فكان يرسل بعض الفاسيين المتعاملين،ومنهم عبد العزيز لحلو إلى بنعبد الكريم ليقنعه بعدم غزو فاس والعدول عن مهاجمة فرنسا في حمايتها ...

وما أن تقوت والتحمت الجيوش الفرنسية والاسبانية شمال جنوب الريف حتى شرعت في مهاجمة قوات بنعبد الكريم بالطائرات والكور، فما كان من محمد بنعبد الكريم إلا أن استسلم هو وعائلته في شهر يونيو 1926 على يد المرشال الفرنسي بيتان الذي خلف ليوطي في مواجهة حرب الريف ...

ولقد استبشر بعض الفاسيين الارستقراطيين بنهاية حرب الريف حيث وقع طوالها الكساد في التجارة والمعاملات مع البادية، واستقر عدم استتباب الأمن في الطرق والبوادي ...

ولما انتصرت فرنسا وإسبانيا على بنعبد الكريم، وضع هذا الأخير في إقامة إجبارية مؤقتة بمدينة فاس زهاء أسابيع طويلة انتظار أن يبث مجلس وزاري بفرنسا في تحديد مكان لمقر بنعبد الكريم وعائلته ...

فعينت الحكومة الفرنسية في الأخير جزيرة لارينيون بالمحيط الهادي كمقر لمنفى بنعبد الكريم، ووضعت الاقامة العامة الفرنسية رهن هذا الأخير قطارا خاصا بمحطة فاس ليتوجه به إلى الدار البيضاء ... ومنها أبحر بباخرة كبرى إلى المحيط الهادي.



الأمير محمد بنعبد الكريم الخطابي وهو يمتطي
قطار فاس ـ البيضاء سنة 1926 ـ

فاحتفل بالانتصار ضد من كان يسمى باللغة المخزنية «بالروغي» أي الثائر، كل من رئيسي الدولتين الفرنسية والاسبانية، المرشال بيتان والجنرال بريمودي ريفيرا وصاحب الجلالة الشريفة السلطان مولاي يوسف وملك إسبانيا

الفونس وعقيلته، وذلك يوم 14 يوليوز 1926 قرب قوس النصر بباريس. فحيت الجماهير الفرنسية (باستثناء الجماهير الشيوعية) ممثلي أطراف الجيش الفرنسي والاسباني الذي قهر بنعبد الكريم تحت أمرة العقيد جيرو ...

ويذكر المؤرخون المطلعون بالأمور بأنه لولا وقوف الجيش الفرنسي بمساعدة المخزن وبالمرتزقة أمام محمد بنعبد الكريم، لكان احتفل الجيش الريفي بانتصاره يوم عيد الأضحى المبارك بالعاصمة الدينية. فاس سنة 1926.

الفصـــل الخامـــس

التنظيـم الاداري قبـل وأثنـاء حـرب الريـف بفـاس ...

منذ سنة 1913، أصبحت مدينة فاس تتكون من بلدية وإقليم. فالاقليم يضم مقاطعات ودوائر يتحكم فيها الفرنسيون بعد إخضاع القبائل، ونذكر على الخصوص دائرة صفرو وبلديتها، ودائرة ورغة العليا ومكتبها بتاونات، ودائرة ورغة المتوسطة ومكتبها بغفساي.

ونظرا للتركيبة العسكرية آنذاك، فإن إقليم تازة كان ينضم إلى إقليم فاس والذي يتكون من دائرة تازة ودائرة غرسيف ودائرة اللبن ومكتبها بتايناست ودائرة مسون العالي ...

فكل هذه المقاطعات والدوائر، كان يسيرها في الأوائل إطارات عسكرية محنكة نذكر على رأسها حاكم من درجة جنرال، دام حكم كل واحد منهم زمنا طويلا، كالجنرال هوبير لابارا.

أما الكتابة العامة، فكان جل أعضائها عسكريين من درجة عقيد إلى درجة ملازم (اليوتنان).

وبالطبع، كانت مصالح إقليمية متنوعة أخرى يرأسها موظفون مختصون وحرسون على الأمانة العامة، منها مصالح الأمن والمالية والصناعة والتجارة والفلاحة والغابات والصحة العمومية والتعليم والعدل، كما كانت توجد بفاس غرف تمثيلية خاصة بالفرنسيين وبالمغاربة.

وعلى سبيل المثال، نذكر أسماء المغاربة الدائمين في تمثيل الفلاحة بفاس وتازة، ومنهم محمد المرنيسي وادريس الحوات وحسن السنوسي ومحمد

البغدادي وعبد السلام العدلوني، أما الممثلون المغاربة في التجارة والصناعة، فهم الحاج عمر السبتي وامحمد الزغاري ومحمد الغزاوي ومحمد الخيران ومحمد الفيلالي، وأما في المصالح البلدية، فقد كان يتعاون مع الفرنسيين كل من الطيب مكوار وأحمد الزرهوني وأحمد الحبابي والحاج الفاطمي بنسليمان بصفته باشا المدينة وعبد القادر بنيس ومحمد بناني واسماعيل الادريسي ومولاي أحمد العلوي (فليس الوزير الحالي !).

فهؤلاء كانوا يباشرون أمور المدينة بصفتهم خلفاء للباشا في عهد الحماية، أما من يدعون بأنهم كانوا يمثلون المسلمين بفاس في المجلس البلدي، فقد كانوا متعددين في بعض الفترات من الحماية، ونذكر على سبيل المثال، أحمد الحمياني والطالب الهواري والفاطمي الفاسي وبنسالم جسوس والحاج محمد بن عثمان الشامي والعربي التسولي والحاج حسن غلاب وغيرهم، وكان المجلس البلدي يحتوي أيضا على ممثلين يهود عاشوا قرونا بجانب المسلمين وفي حماية السلاطين المغاربة [1].

القـواد المتعاملـون مـع فرنســا حســب التركيــب الاداري

وإذا خرجنا إلى بادية فاس أو بالأحرى أحواز فاس، فإن هناك مقاطعات قبلية يحكمها قواد يتعاونون مع فرنسا بعد اقتراح أسمائهم إلى المخزن الشريف حيث يعينهم بظهير قانون يوقعه جلالة السلطان مولاي يوسف، وبعده خلفه سيدي محمد بن يوسف، فنذكر منهم على التوالي أسماؤهم ليعرف أبناء فاس طرفا منها. وقد ساند جلهم مؤامرة الادارة الفرنسية على سيادة المغرب في شخص محمد بن يوسف الذي جعله وطنيو حزب الاستقلال «زعيم المطالبة باستقلال المغرب عن فرنسا وعن إسبانيا»، فمنهم بالتوالي :

رحو بن بوجين، قائد مولاي يعقوب وقبائل الشراردة وبني سادن وأولاد الحاج للسايس وللوادو آيت عياش والشجاعة وحميان ...

1. كان كل هؤلاء النبلاء يتعاونون مع الحماية الفرنسية، ومنهم أب الزعيم، علال الفاسي الاستقلالي، السيد عبد الواحد الذي أدان سنة 1921 في خطبة دينية زعيم حرب الريف محمد بنعبد الكريم الخطابي.

محمد الصديق بن الحاج ادريس الجامعي، قائد أولاد جامع. الجيلالي بن قاسم، قائد الاوداية.
ومولاي أحمد بن محمد العلوي، قاضي هذه القبائل المذكورة، وإذا ابتعدنا عن فاس، نجد في دائرة قرية أبا محمد، قائد الشراركة، وهو علال بن أحمد الصوفي وقائد حجاوة وأولاد عيسى، وهو وفد بن حجاج، أما قاضي هذه القبائل، فهو محمد بن الحاج، وفي قيادة فشتالة والسلاس، نجد محمد بن محمد بلعربي وفي قيادة أولاد الغياب بالحياينة، نجد أحمد بن عبد السلام البقلي وفي قيادة أولاد العليان قدور بن حمادي البراري، وقاضي كل هذه القيادات، السيد عبد الرحمان بن الصديق الغريسي.

أما في دائرة صفرو التابعة لفاس، فقد كان يرأسها مراقب فرنسي في رتبة عقيد عسكري، يساعده باشا المدينة. كان يحارب مع فرنسا، وهو امبارك البكاي. وسيختار هذا المغربي الاتجاه السياسي للسلطان محمد بن يوسف سنة 1953، عند نزعه من العرش المغربي وسيصبح بين عشية وضحاها في المغرب المستقل، أول رئيس حكومة مغربي، بينما كان مستوى ثقافته لا يتعدى الشهادة الثانوية. كذلك كان يتكلف بقبيلة آيت يوسي امكلا، القائد لحسن وادحدو سعيد الذي سيصبح وزير الداخلية في أول حكومة الاستقلال وكان شبه أمي. أما بقبيلة بني يزغة، فقد كان يقودها العربي بن عبد السلام وبقبيلة البهاليل، محمد ولد قاسم بن ادريس، وفي دائرة صفرو، كانت ملحقات إيموزار الكندر وابولمان وسكورة وإيموزاردي مرموش واحرمومو والعدرج ... ينشطها قواد مخلصون لفرنسا، ونذكر منهم العربي العياشي على رأس قبائل آيت شغروشن، وشرفاء تلميرات، والعياشي بن عبد المالك على رأس قبائل إيغرزان وآيت شغروشن سيدي علي الأشرف ... واللائحة طويلة في ذكر قواد آخرين يسيرون ملحقات تتكون من قبائل بربرية شتى خاضعة للمخزن بعد عشر سنوات تقريبا من الفوضى قضت عليها فرنسا بجيشها القوي ...

بعض الخدام الفاسيين البارزين في المخزن الشريف ...

وإذا كانت الاقامة العامة الفرنسية قد قامت بواجبها في تأسيس إدارة مدنية وعسكرية فعالة وبرز فيها رجال محنكون في العمل الاداري والمالي

والمعماري والفلاحي، فإن المخزن الشريف الذي كان يتعامل بلطف ولباقة مع المقيم العام المرشال ليوطي، كان له رجاله من فاس، ومن أبرزهم محمد الجباص الذي كان الصدر الأعظم، أي الوزير الأول ما بين 1912 إلى 1917، ومحمد المقري الذي عوضه في منصبه من 1917 إلى 1956، وهي سنة نهاية الحماية الفرنسية بالمغرب. وقد نصب هذا الأخير بحيلة أبناءه في عدة مناصب، فكسب بذلك ثروة هائلة، ويذكر بأنه فتح بقالات تجارية بقصره بالرباط. فهو من أصل تلمساني وكان أبوه يعمل سفنجيا بالجزائر ... كذلك خرج من فاس الحاج أحمد الجاي الذي أصبح المسؤول عن الأحباس، والحاج عمر التازي الذي كان قد سير أملاك المخزن الشريف بصفته وزيرا، وقد وصف بأنه كان رجل أعمال نشيط وحيلي معا وتاجر ماهر أكثر من الأوربيين، وقد أصبح بعد تخليه عن الوزارة، ملاكا كبيرا لأراضي معمارية شاسعة في المغرب، وخصوصا بالرباط، عاصمة السلطان مولاي يوسف، حيث امتلك أحياء أجدال بكاملها...

وفي فاس، كان يؤثر على العلماء باسم المخزن، محمد بن رشيد العراقي وعبد الرحمان القرشي ومحمد بلعربي العلوي. فمن عرفهم تلك السنوات الأولى من الحماية، ذكر بأنهم كانوا يحسنون ازدواج العلوم الدينية بقواعد التجارة الرائجة آنذاك.

لكن هذه المجموعة من الخدام الفاسيين للمخزن الشريف الذي ذكرت، لم يكن لهم جاه ولا سلطة ولا نفوذ أمام رجال الحماية الفرنسية لأنهم كانوا في الغالب عديمي الكفاءة والدراية الادارية، ويوظفون بصفة أنهم ينتمون لعائلات ذات نفوذ أو لعائلات عسكرية، وكانوا شبه مجموعة من أناس صوريين أمام شبه دولة استعمارية جديدة قوية بإطاراتها الأكفاء، من مراقبين مدنيين تكونوا في الكليات والجامعات الكبرى بفرنسا، فأحدثوا ضجة إدارية وتقنية أتت تحت ظل الحماية بالخير العميم في بناء منجزات لم يكن يحلم بها المغرب منذ قرون. فقد شيدوا بدون ارتشاء، مدنا جديدة ومراسي ومطارات وسككا حديدية ومحطات كهربائية في المدن العتيقة المغربية، وسدودا وفلاحة عصرية وصناعة وتجارة نشيطة تصدر لأوربا، وتطبيب وتعليم وتدريس متقدم استفادت منه غالبا بورجوازية مغربية متعطشة للعلم العصري. فأصبح أبناء هذه البورجوازية فيما بعد الحماية، مهندسين وبيطريين وأطباء ومهندسين في المياه والغابات انتفع بهم المغرب عند استقلاله.

الفصـــل الســـادس

التنظيـم الاداري الفرنسـي المحـض

ففي كل مدينة، وبالخصوص مدينة فاس، أصبح كل مراقب مدني فرنسي حاكم للمدينة يساعده مراقب للضرائب الحضرية والقروية ومراقب للأملاك الحكومية أو المخزنية ومراقب للجمرك عند كل حدود.

فتمتع المراقب المدني بجميع السلطات الكاملة على شكل الوالي أو عامل إقليم اليوم، حتى أن باشا المدينة أو محتسبها، وهما من نسيج المخزن القديم، أو أعضاء المجلس البلدي الذي أنشأه ليوطي في فاس، وجب عليهم أن ينتظروا ساعات طويلة قبل أن يدخلوا مكتب المراقب، الشيء الذي أحدث على طول السنين بعض الاضطرابات لدى الفاسيين ومس بكبريائهم نظرا إلى أن بعضهم كان يفتخر بدرجته أو بلقبه من القضاة أو العلماء أو الشرفاء التي توزن قراراتهم بالذهب والفضة، فكانوا يحاولون خرق القوانين باستخدام مرتبتهم، وجاههم، وهذا ما أدى في بعض الفترات إلى الخلافات والنزاعات الادارية بين أعضاء المخزن الشريف والادارة الفرنسية طوال سنوات الحماية بالمغرب، وخصوصا حول المسائل العقارية والارثية حيث أن بعض القضاة أو الباشوات المسلمين كانوا يتلاعبون خفية عن أية مراقبة ... فكم من هؤلاء المخزنيين قد استغنوا بمساعدة إطاراتهم التي كانت تحمل اسم «ابن الموارث»، ثم تقاعدوا عن اختصاصاتهم الادارية والشرعية وهم يتمتعون بأملاك عقارية في اسمهم. وقد حاولت الادارة الفرنسية نزع الاختصاصات المالية لبعض خدام المخزن، لأنهم يتلقون مقابلها رشاوي، وبالخصوص لدى الفلاحين الفقراء لنواحي فاس الذين كانوا يخضعون للترتيب. ومعلوم أن هؤلاء الفلاحين كانوا يطلبون سنويا القروض لدى الشركات الاحتياطية «S.O.C.A.P.».

ولقد أصبح الفرنسيون يحلون محل المغاربة في تقييد شخصي لأسماء الفلاحين المطالبين بالقروض والذين سيخضعون لأداء ضريبة الترتيب. فكان الفرنسيون يراقبون كذلك استعمال هذه القروض أو تحويلها عن الفلاحة لأغراض عائلية أو قبلية، لأن الفلاح المغربي كان يستعمل عادة القروض لمصاريف الزواج أو العقيقة أو الختانة أو مناسك الحج، وكان المراقبون الفرنسيون يتجولون على ظهر الجياد والبغال في كل منطقة قيادية للاطلاع على حقيقة منجزات الفلاحين وعلى شكاوي ومطالب الفلاحين بصفة عامة، لأن المراقبين كانوا يتشككون في أخبار القواد والشيوخ والمقدمين الذين كانوا يكررون لهم شهريا بأن حالة الرعية حسنة للغاية ولا حاجة للقلق على مصير السكان.

فكم من مراقب مدني تدخل ما بين القواد المسلمين والفلاحين الصغار، فينتهي في بعض الفترات بطرد القائد أو الخليفة من منصبه بعد معاقبته بذعيرة مرتفعة [1]، ويتدخل المراقب كذلك في الحملات التي كانت تهدف إلى جمع الأموال لدى الفقراء لإنجاز مشاريع فخفخية، فمواقف الكومندان «نيفيل» مشهورة في نواحي مكناس سنة 1922، وذلك بمعارضته في جمع الأموال لدى الفقراء لبناء مسجد باريس مثلا.

وكان المراقب المدني الفرنسي يعاقب «الكابرانات»، وهم المغاربة المكلفون بتسديد أجور عمال الأوراش في الطرق، ويعوضهم بأوروبيين لحماية مصالح المأجورين المغاربة، وقد وقع هذا في جل طرق مدينة فاس ونواحيها ...

وكان الحاكم الفرنسي يتدخل أيضا ضد المحتكرين التجار لحماية البائع الصغير، وقد وقع هذا في أسواق قروية قرب فاس ضد بعض التجار الفاسيين المحتكرين الواردين من المدينة والذين كانوا يتعاملون مع قواد المنطقة على حساب الباعة الصغار ...

وكم من مرة تدخل الحكام الفرنسيون أيام الحماية لحماية النساء والأطفال الذين كان أزواجهم وآباؤهم يقرعونهم بالضرب وبالعصا، فكانوا يطبقون الذعائر المرتفعة تؤدي بالبسيطة الحسنية وتجدد إذا اقتضى الحال. وكانوا يعاقبون

1. فكل الحكام الفرنسيين الموظفين من طرف حكومة باريس رجعوا إلى بلادهم وهم بدون رأسمال كثير، منهم ليوطي وجيرو وكيوم ...

كذلك الجنود المغاربة أو الفرنسيين الذي يعتدون على الناس الضعفاء بسبب السكر والخمر أو الجشع، ويعاقبون الأوروبيين التجار الذين احتكروا أو قتلوا بهائم الفلاحين [1]. على كل حال، قد كان جل المراقبين المدنيين لمدينة فاس أو نواحي فاس يتحلوون بالضمير العميق والاخلاص لمهمتهم وبعدم التدخل في الرشاوى والاثراء السريع [2]. فهناك شهادات كثيرة، ولا زال بعض المغاربة الفاسيين الأحياء يتذكرون أيام إدارتهم العادلة الحلوة السريعة التنفيذ بدون مقابل ...

وكان المراقبون يحاربون بكل ما في الكلمة من معنى الرشوة على حساب الفقراء والضعفاء في المدينة وفي البوادي، وبالخصوص ضد أعضاء المخزن الطامعين. فهناك عدة محاضر لا زالت تشهد بذلك في الوثائق التاريخية المعروفة. وإذا عاقب المراقب المدني الفرنسي، فإنه يدخل المغربي إلى سجن مبني بعيد عن الحارس، خلافا لما كان عليه السجن أيام المخزن ... وإذا أراد أن يحارب العهارة المتسترة المعدية للأمراض الخبيثة، فإنه يحدث دارا مغلقة تراقب من طرف طبيب جنسي ليشبع به نهم الجندي أو الشاب اليافع، تحاشيا لخطف النساء أو الغلمان، أو إشاعة الأمراض الجنسية ...

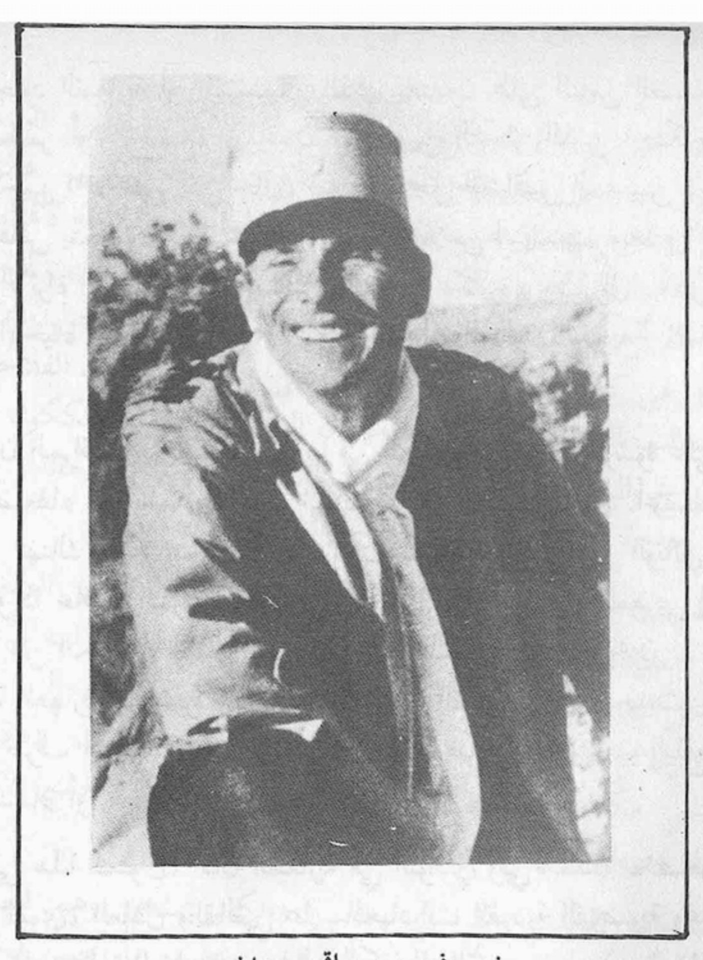
وعلى هذا المنوال، كان المغاربة في البوادي وفي المدن يخضعون لحكم المراقبين، القوي، العادل والقاضي على المبادرات الفردية الفوضوية وعلى تجمع غير قانوني للمصالح الخاصة، وهذا الحكم للمراقبين دخل في تهدئة السكان بصفة عامة لينظف وجه الحماية في أحسن صورة في سنواتها الأولى ...

لكن مع السنين ومع كثرة الشكايات والمطالب، وقع الانحراف حيث أن القواد والباشوات والمخازنية أكثروا من العنف والضرب على أيدي الناس، فكانوا يضعون بسهولة الرجال في السلاسل، ويضربون النساء وينهب المخازنية الماشية والمال، وخصوصا إذا أخفى سكان الدواوير سارقا أو مجرما، كذلك يقوم بعض مراقبي السلطان بنهب وخطف أمتعة السكان إذا كانوا في سفرة أو رحلة في

---

1. وخصوصا عندما يكشتف بأن القائد أو الخليفة يغالي في تطبيق «التويزة» المتعبة أو «الانتفاع» على الفلاحين الفقراء لصالحه الخاص، فهناك قضية الخليفة آيت مغوال سنة 1917، كان القواد يطبقون التويزة يوما للعمل بالمحراث ويوما للحصاد.

2. قضية المغربية إيطو عمر ضد شركة مازير ...



ـ نمـوذج مـن مراقـب مدنـي ـ

المغرب [1]. وفي مساجين القواد، يضرب الناس ضرب قاسي إلى الموت ويعذبون عذاب القرون الوسطى. فقد أصبحت هذه الحالة مع السنين لا تثير بال المراقبين المدنيين الذي يغمضون الجفن على سير المخزن في البلاد، كأنهم يذكرون بقول الفيلسوف الألماني جوتة : «عدم العدل، عوض الفتنة». وقد وقعت عدة مخالفات في جل دوائر مدينة فاس بمرأى ومسمع من رئيس الناحية الجنرال فلان وفلان، والذي لا يمكنه أن يوقف عادات قديمة في البلاد أو أن يرطبها، بل يمكنه أن يضع توازنا ما بين الأغنياء والفقراء على يد المراقبين،

1. فجدي المرحوم التاجر عبد القادر الورديغي كانت تنهب عاديا قافلة ماشيته الواردة من تادلة عاصمة قبيلته إلى الرباط الذي استصهر فيها، وذلك على يد قواد قبائل زعير أو على يد رجال المخزن إلى أن هدأت القوات الفرنسية أطماع القبائل الجائعة ...

ويعمل على وضع حد للعنف بين القبائل المغربية، ونزعهم من السلاح ثم إخضاعهم إلى رئيس يخدم لادارة منظمة، كالحماية.

وهذا كان هو هدف وغاية الحماية الفرنسية بالمغرب، فما بين سنة 1926، وهي نهاية حرب الريف وسنة 1944، وهي بداية الاضطرابات السياسية، خيم هدوء عام نسبي في فاس ونواحيها، وكذلك في جل المغرب باستثناء بعض المناطق الجبلية، بحيث سهل التنقل من قبيلة إلى أخرى، فأمكن القيام بالزرع وبالحصاد، في الأراضي والتسويق للحبوب والماشية والمواد الغذائية. فأصبح يصعب نهب أو سرقة أمتعة الناس، سواءا كان على يد خدام المخزن أو على يد مجرمين عاديين ، وبالمراقبة المتوالية على يد اللجن التي يرأسها دائما مراقب أو خليفة له، وكان يصعب كذلك على القواد وحاشيتهم أن يطالبوا بالرشوة من الفلاحين وخصوصا أن فرنسا منحتهم نسبة تخصم من ضريبة الترتيب، لكن لم تستطع المراقبة أن توقف حركة السمسرة التي كان يقوم بها القواد في بيع أراضي الفلاحين إلى المعمرين الأجانب. فكم من آلاف الهكتارات مرت بيد المعمرين بسبب الترتيب الذي كان يطبق تطبيقا سيئا على بعض السكان. فكم حاول بعض المراقبين المدنيين حماية هؤلاء الفلاحين بتنقلاتهم المتعددة وبتقاريرهم الادارية ضد المعمرين وضد الخلفاء والقواد المرتشين.

وهذا ما وقع بالضبط للأراضي الفلاحية الخصبة الواقعة «برأس الماء» بضواحي فاس التي كان يملكها السلطان مولاي عبد الحفيظ الموقع على الحماية، وهي ما يقرب من 3.020 هكتارا، وبالخصوص في أراضي قبائل السجاع وقبائل حميان ... فهذه الأراضي كان يحرثها فلاحون من فاس، فسلمتها مصلحة الأملاك سنة 1918 ضد إرادة الخكم العسكري والاداري الفرنسي، إلى شركة أجنبية، لكن في سنة 1922، قام الفلاحون بإحراق المحصولات الزراعية وبإحراق جميع آليات الشركة التي عوضها ليوطي فيما بعد من صندوق الميزانية ...

الفصــــل السابـــع

الاصلاحـات حسـب بعـض القوانيـن الفرنسيـة المنشـورة فـي شكـــل «ظهـائـــر»

فأثناء انكباب ليوطي وجماعته على تأسيس الأجهزة الضرورية للدولة المغربية الجديدة، وضعت الحماية قوانين ومراسيم في شكل ظهائر شريفة تنظم البلاد جغرافيا وفلاحيا ومعماريا واجتماعيا.

في إطـار احتـرام التقاليـد المغربيـة

فأول ما بدأ به ليوطي، هو الانعكاف على احترام التقاليد المغربية والاسلامية بفاس، بنشر ظهير (قانون) وهو بتاريخ **31** غشت **1914** حول نزع الملكية لسبب نفع عمومي أو احتلال مؤقت، يهدف إلى تعمير الأراضي الصالحة للفلاحة، ولكن في حدود، تتعلق بالمساجد وبالزوايا والمقابر الاسلامية، ولا يمكن بأي حال أن تنزع أرضها، ويمنع كليا على الأوروبيين ولوج هذه المساجد، لهذا لم يتمكن أحد من المعمرين الاستيلاء على مكان ديني، كذلك منع تصوير المباني الدينية والقصور الملكية ودخول الجوامع والمدارس الدينية للأوروبيين بقرارات بلدية خاصة.

فهو الذي منع على المسلمين المغاربة تناول المشروبات الكحولية بواسطة ظهير، وإجبار أصحاب دكاكين البائعة أو المروجة للخمور أن تكون بعيدة عن المساجد والمقابر وأن لا يستقروا بمباني محبسة، تكون مخصصة للجاليات الغير المسلمة ... وقد حارب ليوطي بتعليماته الخطية والمكتوبة البعثات المسيحية منها «جوسيال ميسيون» التي كانت تنشط في بعض القبائل المجاورة لفاس ...

والهدف من كل هذا هو أن تحافظ إدارة ليوطي على عاطفة الكرامة للمسلم المغربي بفاس وبمختلف نقط المغرب. ومن المعروف أن ليوطي دافع عن دوام الهدية «للسلطان» بمناسبة الأعياد الدينية أو بمناسبة مرور «جيش» السلطان، ودافع أيضا عن قواعد الزوايا القديمة، كمظاهرات الزوايا الكائنة بفاس، ومنهم طوائف الكتانيين والعيساويين والدرقاويين، ومظاهرة الاحتفال بعرض سلطان الطلبة القديمة بفاس، منذ صعود العلويين إلى الحكم بالمغرب.

فأظهر ليوطي بهذا بأنه كان محافظا على التقاليد المغربية أكثر من المغاربة، ولا زال يذكر بأن ليوطي هو الذي قرر استخدام «العريفة» في البحث القضائي عند العائلات المتابعة بالحجز، غاية منه احترام المغاربة في بيوتهم، وقد استخدمت المرأة «العُريفة» في كل بيت متابع قضائيا في فاس لتصبح المتابعة غير ما يسمى «بهجوم أو سيطرة على المنازل السالمة المحصنة» ...

بعض إصلاحات العادات القديمة للمخزن

بعد دخول الحماية إلى المغرب، وقعت بعض الاصلاحات الجزئية على المجتمع المغربي الذي كان منغلقا بذاته منذ قرون بسبب انعزال سلاطينه الذين كانوا يرفضون مجملا كل تطور ملموس في العادات والتقاليد، وهذا كان سبب تأخير المغرب إلى يومنا هذا ...

فأثناء حكم الجنرال «جورو» لفاس وناحيتها، قررت القيادة العسكرية تحديد أجور مقدمي الحومات ومخازنيي الباشا أو الحاكم، عوض ما كان يسمى سابقا «بالسخرة» التي كانت تنزع من الناس بصفة عشوائية. وقررت القيادة الفرنسية كذلك تحديد قواعد «الهدية» للسلطان في حذف المساهمات المالية التي كانت تسلمها مجموعة القواد والباشوات في المغرب لحاشية السلطان بمناسبة الأعياد الدينية الثلاثة. فقد أمر المرشال ليوطي بأن تنظم حفلة «الهدية» بصفة جماعية لكي تصبح دعاية المخزن غير مخزية لأنها في الماضي أدت إلى تقهقر لدى القبائل بسبب تصرف بعض أعضائه بالاستحواذ على أرزاق بعض القواد والباشوات الذين كانوا ينهبون بدورهم السكان الآمنين.

وقد قضي نسبيا على الرشوة بتوظيف مستخدمي «البنيقة» بوضع لائحة خاصة بهم وتسديدهم بأجور شخصية مسجلة ومعروفة لدى مصلحة عمومية تسمى «الصُّوم» بإدارة الماليةِ أو «الضوتي» ...

وهكذا أصبح الموظفون الفاسيون في المخزن يحصلون على رواتب وتعويضات محددة حسب الأقدمية والخبرة والنفوذ، وكذلك المساعدون الصغار، كمحصلي «الترتيب» على ظهور البغال والجياد، فقد أصبح منذ سنة 1920، تعطى رواتب للباشوات وللقواد، فلقد كان مثلا باشا مدينة فاس، بوشتة البغدادي، يتقاضى راتبا يقدر في وقته بـ 35.000 فرنكا لا غير، وأقل من هذا المبلغ للقواد والخلفاء والشيوخ.

وفي سبيل تمتين السلطنة بالمغرب وتقوية نفوذها، كان يرى ليوطي لزاما على المغاربة أن لا يفرقوا بين العاطفة الوطنية والايمان الديني أو بالأحرى، أن السلطة السياسية لا تفترق عن السلطة الدينية، وقد عبر عن ذلك في خطابه الذي ألقاه في شهر أكتوبر سنة 1916 بفاس أمام القواد والباشوات بمناسبة عيد الأضحى، والذي حرض فيه على عدم وضع الكسوة الأوروبية في محل السلهام والجلابة وذلك بصفته كقائم بسلطة الحامي لدى السلطان المعظم المجسم في نظره للامبراطورية التاريخية الغائرة على استقلالها، والسلطان في نظر ليوطي، هو المجسم لجميع القوات التأسيسية للبناء المغربي، لأنه يشخص الحفيد المباشر للنبي محمد بن عبد الله ﷺ وبصفته خليفة، وأمير المؤمنين.

فباسم السلطان، تقرأ الصلاة، فالمغاربة يمكنهم أن ينتقدوا السلطان وينزعونه من العرش، ولكنهم لا يجتمعون ولا يستمعون إلا حوله. فإذا قد نزع مثلا ليوطي السلطان مولاي عبد الحفيظ عن الحكم، فإنه وضع في مكانه شقيقه مولاي يوسف ليعتقد الشعب المغربي دائما بأنه يوجد أيضا سلطان بالمغرب. فقد حمى ليوطي السلطان مولاي يوسف ونزع من حوله حاجبه المرتشي، التهامي اعبابو الذي عاش حادثه مشهورة بقصره بفاس حيث دخلت عليه سنة 1927 الشرطة القضائية، فوجدت بقصره ثمانين صندوقا مليئة بالقطع الحريرية والثوبية النفيسة وكثيرا من الحلي والمجوهرات. فكانت ستهدى عنوة إلى السلطان بمناسبة عيد الهدية، فاكتشفت الشرطة كذلك بقصره خزانة السلطان

مولاي الحسن الأول، وهي تحتوي على 2.500 كتابا قيما [1].

بعض المنجزات أثناء إقامة السلطان بفاس

ومن المعلوم أنه قد نقلت عاصمة المغرب من فاس إلى الرباط بقرار من ليوطي حفاظا على شخصية السلطان، لكن حصل أن أقام السلطان مولاي يوسف بفاس عدة مرات بها، وذلك بمناسبة تدشين منجزات هامة قامت بها سلطات الحماية في إطار إصلاح المغرب القرن الوسطي، منها أولا الطريق المزفتة التي شيدت من فاس إلى المحيط الأطلسي سنة 1917، وثانيا الخط الحديدي القائم بين فاس والرباط سنة 1923. ففي قطار فاس مثلا، ذهب الأمير محمد بنعبد الكريم الخطابي بصحبة عائلته إلى الدار البيضاء ليبحر إلى جزيرة منفاه بلارينيون بالمحيط الهادي ...

وقد أقام السلطان مولاي يوسف مدة طويلة بفاس سنة 1921 حيث بنيت مدارس ومستوصفات، منها ثانوية مولاي ادريس التي كونت أفواجا متعددة من الفاسيين. فطالت إقامته كذلك سنة 1924 لمواجهة حرب الريف القائمة على أبواب فاس بعين عائشة، والتي لربما كانت الجيوش الريفية ستحتل المدينة، لولا التحام القوات الفرنسية مع القوات الاسبانية وبعض الرؤساء التقليديين المغاربة ...

ففي هذا الظرف الحرج، كان ليوطي يقيم اتصالات وثيقة مع علماء فاس للاعتناء بهم و «ضرورة العناية بالاسلام» لئلا ينفجر على بني قومه، وذلك طبقا لعقد الحماية الرامي إلى حماية السلطان والاسلام ...

وكان يفرق ما بين المحافظين التقليديين الذي يمثلون الماضي السحيق والمحدثين الذين كانوا ينادون بتعليم الفرنسية للكفاح بنفس سلاح المستعمر في الميدان الاقتصادي والتجاري. فكان يحرس ليوطي على أن يشارك المغاربة في جميع اللجن المكونة لدراسة مختلف المؤسسات الاسلامية المتعلقة بالأحباس أو بالشرع أو بأملاك المخزن لمحاربة أو إقصاء المنتفعين الوصوليين

1. مذكرة حول قضية اعبابو بتاريخ 24 مايو 1928.

أو الطامعين في التمليك. وكثيرا ما استخدم ليوطي قاضبيين من فاس يعتبران من كبار العلماء، وهما محمد بن رشيد العراقي وعبد الرحمان القرشي [1]، وذلك ليحسما في المخالفات التي تقع ما بين إدارة الأملاك المخزنية والمتصرفين لأملاك المخزن بدون سند قانوني حول الأراضي التي وزعت على بعض الفاسيين غلطا منذ عهد الوزير اباحماد، فيضع القاضيان المذكوران فتوة في الموضوع لحسم الخلاف.

ويذكر بأن ليوطي قد استرجع عن طريق القضاة مائة ألف هكتار إلى الأملاك المخزنية لتوزع فيما بعد على المعمرين الأوروبيين ليستثمروها لصالحهم ولصالح الدولة الشريفة الجديدة.

تنظيم الأحباس والشرع

والمعروف أن إدارة ليوطي قد قامت بمساعدة علماء وبموافقتهم على ترتيب إصلاح حالة أراضي الأحباس التي كانت مزرية ابتداءا من تطبيق عقد الحماية حيث كانت نظارة الأحباس بفاس تعيش في فوضى سببت السبي والنهب الذي ساد المغرب بعد انقلاب مولاي عبد الحفيظ على مولاي عبد العزيز، فزادت النظارة في النفقات وقللت من المداخيل وباعت أراضي خيالية للناس ...

فيفضل لجنة من العلماء، وعلى رأسهم أحمد الجاي، وزير الأحباس من فاس وبوشعيب الدكالي من الرباط، وقع إصلاح جرئ ما بين 1913 و 1915 على يد المراقبين الفرنسيين «بيارني» و «هانري كايار» حيث استرجعت ما يقرب من 16 ألف ملكية، تقدر بـ 70 مليون بسيطة حسنية، فحصلت بذلك مداخيل هامة ما بين 1913 و 1916 حيث خصص طرف منها لاصلاح المساجد والمدارس الاسلامية وتحسين حالة موظفي الأحباس ومسيري المساجد والطلبة اليتامى والمساكين ...

---

1. وهؤلاء العلماء النشيطون هم أحمد بن الخياط وعبد الحي الكتاني وعباس التازي وأحمد بن الجيلالي والمهدي العمراني ...

كذلك أن ليوطي نظم المباريات للقضاة والعدول ابتداءا من سنة 1915 وصنف ما بينهم بدرجات وسلاليم ...

فأصحاب الدرجة الأولى هم الذين لهم الحق في دراسة العقود العقارية والوراثية. ولا تعطى الوكالة القضائية إلا من حصلوا على رخصة من وزير العدل المغربي، بعد الفحص في حالته وسيرته الأدبية [1] ...

وقد أمر ليوطي القضاة والعدول بأن يسجلوا العقود في دفاتر السجلات ويحددوا في شأنهم أثمان وأسعار التسجيل بصفة معقولة، هدفا للقضاء على الفوضى التي كانت سائدة في القضاء وفي الشرع، وليخضع هذا القضاء وهذا الشرع لمبادئ قارة ومعنوية، ونشر ليوطي ظهيرا (قانون) بـ 15 يوليوز 1914 يتعلق بالتسجيل حول تحديد الأثمان، فأقام العدول بفاس ضجة كبرى بسبب الزيادة في العمل بجعل العقد العدلي في عدة نسخ ليسجل بمحكمة القاضي، والحقيقة أن بعض العدول كانوا يريدون تحرير العقد العدلي حسب هوى الورثة أو الوكلاء المتحايلين.

وبما أن الهرج والمرج كان يسود القضاء المدني والجنائي، فإن ليوطي ثقب الحفر الكبير في هذه السياسة بموافقة علماء فاس وترك بصفة عامة اختصاص القضاء الجنائي والتجاري وبعض المخالفات للباشوات والقواد هدفا للاسراع بالتنفيذ ولإيهاب السكان ...

أما المسائل العقارية ومشاكل الشرع في الزواج والطلاق والارث، فهي من اختصاص القضاة بحيث أن المسائل التقليدية كانت تصارع المسائل العصرية ...

تشريف ليوطي للزوايا الفاسية مع تعديل نشاطها

ومن سياسة ليوطي كذلك، كان التعرف على المجتمع المغربي، حسب القول المشهور في زمانه : «إلى زاوية تنتمي، أقول لك من أنت ؟». وبالفعل، كان السلطان مولاي يوسف ينتمي إلى زاوية «درقاوة» والبغدادي باشا مدينة

1. تداول على وزارة العدل (Viziriat) عدة مغاربة في عهد الحماية، ومنهم الشيخ محمد بلعربي العلوي المعروف ...

فاس إلى زاوية «الوزانيين» والتهامي الجلاوي باشا مدينة مراكش إلى الزاوية «التيجانية»، أما الشعبيون في فاس من الخرازين والدباغين وجميع خدام الحرف التقليدية، فكانوا ينتمون إلى زوايا عيساوة وحمادشة وهداوة، فهي عبارة في نظري عن شبه أحزاب شعبية تتخوف النخبة من صفتهم الدينية التظاهرية بفاس، أما الزوايا الفاسية، فكانت لها اتصالات ولها فروع في زوايا المدن الأخرى وبعض أهل البادية ...

وحيث كان ليوطي يشعر بالعاطفة الدينية المتأججة لدى المغاربة داخل هذه الزوايا، فقد كان يغمص العين عن أداء حقوق الزيارات للأخوان والتي كانت الزوايا تجمعها بكل حرية رغم أنه كان يعتبرها شكلا من أشكال الاقطاع والنهب على حساب الفقراء واليتامى والمساكين. فكان بعض هذه الزوايا يتعاملون مع الشرطة كجواسيس وواشين، وبالخصوص في زاوية الهداويين التي كانت تجمع شكلا من الفقراء التائهين في مجموع تراب البلاد [1].

وقد شجع ليوطي الزوايا التي تحضرها شخصيات في مواسمها، كموسم مولاي ادريس زرهون ومولاي ادريس الثاني بفاس وسيدي بنعيسى بمكناس، وخصوصا بعد أن رجع الهدوء إلى نصابه أيام الحماية الفرنسية [2]، فعمل ليوطي على توحيد نشاط كل هذه الزوايا تحت أمرة المخزن الشريف الموحد ؛ فعاتبوه بعض خلفائه الفرنسيين على عدم تكثيف نشاط الشرفاء الوزانيين ليواجهوا بهم محمد الخامس الذي كان يتعامل مع خصوم الحماية الفرنسية، لأن الشرفاء الوزانيين كانوا يتعاملون جهارا منذ سنة 1912 مع ليوطي وخلفائه المقيمين لتهدئة القبائل الثائرة.

فمثلا، استخدم ليوطي بدون طائل الفاسي العلامة عبد الحي الكتاني ليصلح ذات البين ما بين الصحراوي الهيبة ماء العينين الثائر ضد الاقامة العامة الفرنسية والسلطان مولاي يوسف ؛ فاستخدم ليوطي زوايا أخرى، كذلك في سياسة التهدئة، منهم التيجانيون والشرقاويون وشرفاء امجوط الخ ... لكنه كان يحترم عواطف أعضاء هذه الزوايا، داريا بأن السلطة المغربية كانت ذا أساس ديني عميق، وأن الحماية الفرنسية لم ترد إلى المغرب أو إلى فاس إلا لتكون وكيلة على الادارة الشريفة. لكن مع استغلال مواطنيها وخيرات المغرب ...

---

1. فمنهم من كان يوشي للمخزن أو لرؤساء القبائل الثائرين، أنظر مذكرة المراقب المدني «برونيل» في هذا الشأن سنة 1930.
2. ولقد ساهم السلطان مولاي يوسف سنة 1916 في موسم مولاي ادريس بصحبة أبنائه الثلاثة سنة 1921 ...

الفصـــل الثامـــن

تعامـل النخبـة الفاسيـة الحضريـة مـع الاستعمـار مـا بيـن 1912 و 1934

في المجتمع الفاسي الخاضع للحماية، كانت النخبة تسمى بالخاصة، وبقية الناس بالعامة، لكن ليوطي كان يتقرب من الخاصة أكثر من العامة ليطلعها على الاصلاحات التي تقوم بها الحماية وليحصل على رأيها في الموضوع عوض استفتاء مجلس استشاري لمجلس الأعيان. فكان يتقرب بالخصوص من العائلات البورجوازية الكبرى. فلم ينتظر قط خريف سنة 1912 حتى أسس مجلسا بلديا لمدينة فاس ينقسم إلى طرف مسلم وطرف اسرائيلي، فكل قسم كان يتكون من ثمانية أعضاء يمثلون كل اثنين منهم، أحياء الأندلسيين واللمطيين والعدوة وفاس الجديد.

فتحمس الفاسيون لهذا المجلس البلدي على ما اعتقد ليوطي، فوجد فيهم عناصر التقدمية أقل من العناصر الإظلامية، وخصوصا أنه كان يوجد من بين الأعضاء المسلمين للمجلس البلدي أناس عايشوا الحياة الأوروبية بفضل التجارة، فكان من بين أعضاء المجلس البلدي عائلات الشقارنة والطاهريين والسميليين وغيرهم، فقد بكى وتأثر من لم يساعدهم الحظ في عضوية هذا المجلس، فسهل هذا المجلس المكون من أعيان مسلمين ويهود مهمة جماعة ليوطي على تطبيق إصلاحاته بسهولة. ومن المعروف أن هذا المجلس الذي كان يعد قياس حرارة الرأي العام الفاسي، كانت له سلط ضعيفة حيث أن باشا المدينة والمكلف الفرنسي بالمصالح البلدية هما اللذان كانا يتمتعان بالسلطة المطلقة، أما المستشارون أعضاء المجلس البلدي فليس لهم إلا صلاحية إبداء الرأي في اختصاصات المجلس، منها دراسة الميزانية والصحة المحلية والسهر على بعض السمسرات في اقتناء وبيع الأدوات والأكرية وتسليم الأراضي أو استغلالهـــا ...

فاس في عصر النظافة

فمدينة فاس التي كانت أزقتها وسخة وقذرة منذ قرون، أصبحت بفضل المصالح البلدية للصيانة والنظافة تخصص ميزانية هامة تنعشها مداخيل ضريبة الذبح (الكرجومة) ومداخيل سوق الجلد والدباغة، فقد قضي على من كانوا يسمون بأمناء التنظيف ما قبل الحماية لأنهم كانوا يعبثون بالأموال العمومية بدون مراقبة [1] ولم تكن توضع ميزانية محددة. فميزانية سنة 1923 مثلا كانت معروفة وكانت قيمة مداخيلها 385.100 فرنكا ونفقاتها 376.000 فرنكا، فكل المداخيل كانت ترد من الذبيحة ومن الأسواق ودخول المدينة، فتلتها فيما بعد مداخيل «الباتانتا» : أي ضريبة التجارة ...

ولقد كان الحرفيون في الفنادق وفي القيساريات والأسواق يردون إلى المجلس البلدي ويشتكون، فكانت تؤخذ بعين الاعتبار مطالبهم، فتنفذ في الحين تحت رعاية المقدمين وباشا المدينة والمراقب المدني الفرنسي الذي كان يتتبع الأمور بدقة ويضع تقارير مفصلة في هذا الشأن، فتطبق ملاحظاته حول مثلا مسألة الارتشاء أو التهريب للحفاظ على سمعة الحماية الفتية بالمغرب، لكن عندما يتعلق الأمر بعائلات معروفة، فإن سلطات الحماية تغمض الطرف، هذا وقد لعبت بعض العائلات الكبرى والقديمة أدوارا استراتيجية في الحياة المعمارية والحضرية، وخصوصا بفاس والرباط وسلا، حيث كانت توظف الحماية بعض أبناء هذه العائلات في درجة باشوات وقواد (كعائلات بركاش بالرباط والصبيحي بسلا والمقري بفاس مثلا)، فأضافت إلى هذه العائلات الحضرية عائلات قروية كعائلة البغدادي الذي عمل في الجندية الفرنسية ...

تطويق الفلاحة والتجارة

فتح ليوطي في المدينة مجالا للملاكين الفلاحين والتجار المغاربة ليندمجوا في غرف تجارية وفلاحية بواسطة ظهير 20 يناير 1919، وذلك تحت مراقبة محتسب المدينة. وفي البادية، أنشأ ليوطي على شاكلة المستعمرات

1. اقرأ في هذا الموضوع تقارير المجلس البلدي لفاس، وكتاب القبطان «تورمان» حول المجلس البلدي للرباط.

الفرنسية بإفريقيا وآسيا شركات للقرض الفلاحي والاحتياط (SOCAP)، فانخرط فيها الفلاحون الكبار، وأصبحت هذه الشركات تمد الفلاحين المتوسطين والصغار بالبذور وبالمحاريث الحديثة ...

فمدينة فاس مثلا أصبحت لها غرفة تجارية، وكان أعضاؤها منذ سنة 1913 أوروبيون بالبث، فدخلها المسلمون واليهود ابتداءا من سنة 1919، ولكن في فرعها الخاص أي في الدرجة الثانية. أما في ضواحي فاس، فقد دخل الفلاحون في شركات القرض الفلاحية المذكورة، وفي شركات تعاونية فلاحية مهمتها شراء وبيع المنتوج الفلاحي، وخصوصا الحبوب الصيفية والمازوزية.

ففي البداية، ثارت ثائرة معمري فاس وأحوازها حينما عين ليوطي ممثلين من المغاربة، فكانوا يطالبون بأن يجتمعوا معهم ليكونوا خاضعين لأرائهم وملاحظاتهم نظرا لعلو كفاءتهم وقوتهم المعنوية التي يتمتعون بها لدى السلطات الفرنسية الحاكمة، كذلك كان يطالب المعمرون بأن لا يهتم المسلمون واليهود بتاتا بالتجارة الفرنسية التي لا تهم في نظرهم إلا الفرنسيين .. !

وعلى ضوء هذه المطالب الأوربية، أصبح التمثيل المغربي تمثيلا صوريا على مرور السنوات، ففهم المغاربة دورهم الحقيقي وأخذوا يلوذون بالصمت في كل اجتماعات المجلس الأعلى للتجارة والصناعة الذي كان نصف أعضائه يتكون من الأوروبيين، فهؤلاء كانوا يسهرون بوحدهم على المداولات والتدخلات الشفوية والمكتوبة [1]، فبينما كان المغاربة الفاسيون يملكون الرأسمال ما قبل الاستعمار ويستثمرونه في تجارة القطن والسكر والشاي والشموع، كان الأوروبيون يهتمون بالأشغال الكبرى والبناءات والنقل والطرق والمراسي لأن كل الأشغال التي أنجزت بفاس من طرق ونقل وبناءات، قام بها الأوروبيون وجنووا منها أرباحا ضخمة خرجت كلها من ميزانيات البلدية.

فحسب إحصائيات وضعت سنة 1921 من طرف مديرية التجارة، فإنه كانت توجد في طرق المغرب ما يقرب من 508 شاحنة لا يملك المغاربة المسلمون منها إلا 11 شاحنة، وهذا يدل على تفوق الأوروبيين المادي الدائم على المغاربة [2].

1. اقرأ في هذا الموضوع تقارير المجلس البلدي لفاس، وكتاب القبطان «تورمان» حول المجلس البلدي للرباط.
2. من محاضر هذا المجلس لدى إدارة التجارة والصناعة.

تشجيعات ليوطي للتجار الفاسيين

فما بين سنة 1912 و سنة 1956، اشترك الفاسيون المسلمون واليهود مع الأوروبيين في التجارة والمعاملات الصناعية والعقارية والمعمارية والفلاحية، فمثلا عندما أسست سنة 1913 شركة لتموين فاس بالكهرباء، ساهم الفاسيون المسلمون في ثلث رأس مال هذه الشركة، ونذكر من بينهم التاجر المشهور عمر التازي الذي كان يهتم بالأراضي الفلاحية لصالح شركات أوروبية كبرى، وكذلك محمد المرنيسي، الملاك العقاري الكبير ورئيس الفرع الأهلي للغرفة الفلاحية لفاس.

ففي السوق الاستعماري، شجع ليوطي التجار الفاسيين الكبار لبناء أحياء أهلية وفنادق بمدن أخرى كالقنيطرة مثلا، وأعطاهم جميع التسهيلات الضرورية للحصول على القروض وعلى قطع أرضية حضرية بالمدينة الجديدة لفاس كدار دبيبغ مثلا وكيليز بمراكش لبناء دور للأكرية ...

وفي سنة 1921، أدخل ليوطي أربعة مغاربة (من بينهم فاسيون) في المجلس الاداري للمكتب الشريف للفوسفاط عن طريق المجلس الأعلى للتجارة والصناعة، وهم محمد المرنيسي ومحمد بن عبد السلام العلوي وعبد الرحمان بن عبد الواحد بنجلون وهم يمثلون مصالح ومطالب الملاكين العقاريين الكبار بفاس [1].

بعض الاستثناءات في تشجيع الفاسيين

لكن سلطات الحماية كانت تمنع التجار الفاسيين من بناء فيلات فخمة ابتداءا من سنة 1915 بالمدينة الجديدة، لكن بعد هذا التاريخ بسنين، قبلت بعضا منهم بأن يسكنوا بدار دبيبغ، لكن عددهم كان نادرا، كذلك ساهم التجار الفاسيون اليهود في البورصة التي أنشأتها الحماية. لكن المسلمين لم

1. ويرجع الفضل لليوطي أن حمى استغلال الفوسفاط من طرف رجال الأعمال الفرنسيين الذين كانوا يريدون احتكاره في السوق العالمي مقابل ارتشاء الحكام. فقد أنشأ ليوطي مؤسسة حكومية في هذا الشأن سماها المكتب الشريف للفوسفاط ...

يساهموا فيها نظرا لأنها تتعارض مع اعتقادهم الديني. وقد عارضت الحماية كثيرا من المسلمين الفاسيين أن يساهموا في السمسرات العمومية لكراء القطع الفلاحية الكبرى، وبالخصوص في مشروع رأس الماء الذي كان يحتوي على 3.070 هكتارا. ولقد كان هدف الحماية أن يستوطن هذه الأراضي أكثر ما يمكن من المعمرين الأوربيين في ضواحي فاس ليستثمروها استثمارا جيدا. فنظمت بالفعل سمسرات خاصة للأوروبيين بناحية رأس الماء وبالخصوص لدى الفلاحين الصغار منهم. فرفضت ترشيحات المغاربة، وعلى رأسهم عمر التازي بدعوى أنهم لا يتقنون الزراعة الحديثة ولا يتقنون إلا الفلاحة المجمدة في تقاليدها الماضية البالية.

الفصـــل التاســـع

تنظيـم المخـزن مـن طـرف فرنسـا بفـاس

تكلمنا في الفصل السادس عن التنظيم الاداري الفرنسي المحض بفاس، لكن في التنظيم المخزني العتيق، قامت فرنسا بتعيين باشا ذا أصل عسكري على رأس مدينة فاس كان قد حارب مع جيش السلطان مولاي الحسن الأول ومع فرنسا، ألا وهو محمد بوشتة البغدادي الذي دام تنصيبه على رأس باشوية فاس إلى سنة وفاته 1932.

أما في نواحي فاس وضواحيها، وبالخصوص في إقليم ورغة العليا، عينت فرنسا عمر ولد احميدو، وهو مرنيسي الأصل وذلك في منصب قائد ممتاز.

ولقد عينت فرنسا هاتين الشخصيتين نظرا لتجربتهما ومساهمتهما مع الحماية لأنهما كانا متفتحين على الخارج، بل منخضعين ومنحنيين إلى سلطة المراقبة الفرنسية، فكان البغدادي وعمر احميدو يحكمان على الفاسيين وسكان أحواز فاس على ضوء المنشور المنبثق من ظهير 1913 والذي يرخص للباشوات والقواد أن يحكموا بدون استئناف على المخالفات التي لا تتعدى ذعائرها أكثر من 1.000 بسيطة حسنية وعلى العقوبات الزجرية التي لا تتعدى سنة. أما فوق هذه الأحكام، فكانت ترفع القضايا أمام المجلس الجنائي بالرباط الذي كان يتكون من خمس باشوات سابقين يجلس معهم عميد فرنسي للحكومة كمراقب. وكان يمكن في البوادي للباشوات والقواد (خارج تعليمات المنشور المذكور أعلاه) الحكم بذعيرة مبلغها 15 بسيطة حسنية وبسجن لا يتعدى خمسة عشر يوما بدون استشارة أو رخصة المراقب المدني الفرنسي. أما فوق هذا، فقد كان يجب على القواد أن يطلبوا موافقة رئيس مكتب الاستعلامات المحلية، فما أكثر أيضا من هذا، كان قد وجب موافقة رئيس

الدائرة الفرنسي أو رئيس الاقليم بحيث أن القائد أو الباشا هو اليد التي تضرب والمراقب المدني الفرنسي هو العقل الذي يقرر ...

فإذا كانت نوع المخالفات التي يرتكبها سكان أحواز فاس هي عادة، سرقة البهائم، وخطف النسوة أو العبيد أو الاعتداء على الناس الذي يؤدي غالبا إلى الاصلاح (الدية)، فإن الحماية الفرنسية أضافت مخالفات من نوع آخر، كعدم القيام بالمسؤوليات، برفض تقديم طفلة أو طفل للمستشفى أو التنقل خارج الملحقة أو الاقليم بدون رخصة السفر أو فقدان الماشية في الطرق أو التصعلك وكذلك العنف ضد الحيوانات والعنف ضد الزوجة، الخ ...

وهناك سلطة مالية منحت من طرف الحماية للقواد والشيوخ في قبائل أحواز فاس، فقد كان هؤلاء يجمعون «الترتيب» بصفتهم أعضاء في لجن الاحصائيات، وكانوا يحصلون على عشرة في المائة من مداخيل ضريبة الترتيب، كأجور لعملهم يضاف إليها طرف من حقوق «الأسواق»[1]، فإذا زاد القائد أو الشيخ على هذه الحقوق، فإنه يعاقب قانونيا من طرف سلطات الحماية إما بالطرد من الوظيف أو بإجراء إداري كالذعيرة، وخصوصا إذا كان القائد يطبق ما كان يسمى في الماضي الغابر، بالفريضة على القبيلة. وقد تغافل المراقبون الفرنسيون عن تطبيق إجراء إداري ضد بعض القواد، لأن الاقامة العامة بالرباط كانت تدافع عنهم سياسيا لتستخدمهم في أغراضها الأخرى ولتتحملهم حسب الأسلوب المغربي القديم. والحجة على هذا ما وقع في نواحي فاس على ضفة نهر ورغة، حيث صعد في ظل الحماية الفرنسية القائد عمر ولد حميدو الذي استخدمه الجيش الفرنسي ضد البطل محمد بعبد الكريم الخطابي. فقد أثرى واستغنى بكثير على ظهر فقراء فلاحين ما بين قبائل مرنيسة وصنهاجة والبرانس، وحصل على أراضي وسلفات، وقام بمعاملات تجارية مشكوك فيها، وبنى دارا بفاس [1]، فبلغت ثروته آنذاك 1.256.000 فرنكا إضافة إلى 321 هكتارا كان يملكها. فرغم التقارير الكثيرة التي كتبت عنه من طرف المراقبين حول نهبه للفلاحين، فقد دافعت عنه الاقامة العامة بالرباط نظرا لحسن درايته في الحرب ضد جيش الأمير الخطابي الذي هدد فرنسا ثلاث سنوات بمحاولته دخول العاصمة العلمية، فاس[1].

---

1. من تقرير الكومندان «تريبي» بتايناست الموجه إلى الجنرال، حاكم إقليم تازة الشمالية يوم 14 نونبر 1934.

تنظيم الصناعة التقليدية والفلاحة بفاس

بعدما تكلمنا عن تنظيم المخزن بفاس، وجب أن نصف كيف واجهت الحماية الميدانين الاقتصاديين اللذين كان يرتكز عليهما المخزن، وهما : الصناعة التقليدية والفلاحة بالمغرب.

ففي الصناعة التقليدية، كان المغرب يعيش صناعته هذه منذ قرون ككل بلدان العالم، ففيها المعلمون والمتعلمون والخدامون ويعملون حسب «عُرف» يسجل في فتاوي ووثائق توضع أمام شهود وبحضور أمين الحرف التقليدية ...

ففي مدينة فاس، حيث تمتاز الصناعة التقليدية كما وكيفا بجودتها وبتقنيتها، ومتقدمة على مدن أخرى، كانت تباشر في إطار بدائي. فلما دخلت الحماية الفرنسية بصناعتها المتقدمة، أرادت إدارتها أن تحمي هذه الصناعة التقليدية، لأنها كان يعيش عليها مئات الآلاف من العائلات، فاحتفظت بالادارة التقليدية التي تسهر بمحتسبيها وبمراقبة الأسعار للمواد الأولية ولتتحاشى الانتفاضات الشعبية، فحددت عدد البائعين للمواد الأولية بسوق الخميس للمدينة، ثم شرعت في تنشيط النجارة بالقيام بطلبات متعددة للحرفيين، وعلى رأسهم النجارين، ثم نشطت كذلك البناء بتشييد الطرق والأبواب الكبرى والمدارس ومختلف البنايات البلدية. كذلك حافظت على سمعة الحرفيين بتنظيم معارض (Foires) حيث كان يحضرها جل الصناع الفاسيين. وكان يمتاز فيهم الفخارون والزلايجيون وصناع الصينيات .. فابتداءا من سنة 1917، قامت الحماية بإشراك الحرفيين في متحف الفنون الزخرفية بباريس حتى أن مختلف الحرف التقليدية، رجعت إلى نشاطها كذي قبل، كتجليد الكتب مثلا الذي طالب بها الرأي العام الاستعماري المتعطش لقراءة الكتب. وقد كان المحتسب ادريس المقري بفاس يشجع الحرفيين، ويطلب منهم بالقسم على صنع المواد ذات الانتاج الرفيع. وقد فتحت الحماية مدرسة مهنية لهذا الغرض بباب «ابو جلود» وألزمت الصناع بتشغيل التلاميذ بعد تخرجهم من هذه المدرسة، ولما لم يستخدمهم هؤلاء الصناع، قامت الحماية بتشغيلهم في مؤسسات صناعية جديدة ظهرت للوجود بفاس.

ومع السنين، بدأت الحماية تتخوف من تعاونيات الحرفيين باعتبارهم يشكلون نقابات تناهض سلطتها، فبدأت تعاملها بروح من التفرقة لأنها كانت تدري بأن الشعب المغربي تنقصه الوحدة في صفوفه منذ أيام ما قبل الحماية، ولهذا اغتنمت الفرصة لتفرقة هذه التعاونيات ومعاملتها بواسطة أمناءها بحذر ويقظة واتباع آراء المحتسب ادريس المقري الذي كان يساعده ويعززه في عمله المراقب الفرنسي «مارك» المختص البارع في الحرف التقليدية.

وأما في الميدان الفلاحي، فقد خاضت الحماية الفرنسية سياسة التهدئة تجاه فلاحي نواحي مدينة فاس المنتمين لعدة قبائل كانوا قد حملوا السلاح إلى غاية سنة 1925، وذلك بإنشاء جدارين لحماية المدينة : أولهما إنشاء أسواق عديدة في الجبال والسهول على يد مراقبين مدنيين فرنسيين متخصصين، يحسنون اللغتين العربية والبربرية والعادات والعقليات والتاريخ والجغرافية للمغرب، وهذه الأسواق كانت تعمل لإلهاء الناس في مشترياتها ومبيعاتها للمواد الفلاحية والبهائم والمواد الغذائية. وقد بنى المراقبون المدنيون هذه الأسواق في مدة وجيزة مع تشييد طرق ثانوية متعددة للوصول إليها، وقد تحققت هذه المنجزات عبر قبائل الحياينة وتيسة وبني مطير بتجنيد أعضائها الشابة ...

كذلك أنشأ المراقبون الفرنسيون شركات فلاحية للاحتياط والقرض (السوكاب) لتوزيع البذور والحبوب وتوزيع الآليات الحرثية لتعويض المحراث الخشبي العتيق في الفصول المناسبة، حتى يتسنى للفلاح الصغير أن لا يكون عرضة لربى الفلاح الكبير أو الاحتكار الحضري المتجسم في صفة قائد أو باشا أو تاجر فاسي عادي [1]، وقد ساهمت هذه الشركات الاحتياطية لتموين الشركات التعاونية (لاسكام)، التي بدورها تمون مطاحن المدينة بالحبوب ليوجد الخبز رهن المستهلكين الفاسيين بصفة منتظمة في المخبزات بدون نية الادخار أو عدم الأمن على الاستهلاك. وبنووا الفرنسيون لهذه الغاية مباني ضخمة للدخار وللاحتياط بطريق مولاي يعقوب، ولا زالت شاهدة هذه البنايات على تموين السكان بصفة منتظمة، لكن هذه المباني توجد الآن في حالة يرثى لها من عدم الاعتناء بها. وقد أضيفت إليها بقرية ابن سودة محطة للادخار في

1. ظهير سنة 1917 المنشئ لشركات الاحتياط والقرض.

شكل «سيلوات» شيدها بلجيكيون حديثا في عهد الاستقلال، فعوقب عليها موظف يسمى عبد الله الجاي الذي كان يسهر عليها بنفسه، فسقط في فخ حسد الاحتكاريين بتهمة الرشوة المزعومة، فهو حفيد أحمد الجاي أمين الأحباس في عهد مولاي يوسف.

ففي بداية الحماية، كان الفرنسيون يوزعون بسخاء البذور والآليات الفلاحية على قبائل بني مطير لتتعلق بأراضيها هذه وأن لا تقوم بهجمات على المدينة العلمية أو الهجرة إليها بكثافة ...

فبسبب تدخل القواد والشيوخ والمقدمين في حملة القروض حيث كانوا يطالبون بالرشوة للفلاحين قبل تسجيلهم في اللوائح، واجهت الشركات الاحتياطية (الصوكاب) صعوبات جمة ؛ وسوف تتحول هذه الشركات الاحتياطية في عهد الاستقلال إلى صناديق محلية للقروض بسبب تدخل السلطات المحلية الغير المحايدة.

فخارج هذا العمل الاحساني لرجال الحماية الفرنسية تجاه الفلاحين الصغار، سلمت الاقامة العامة أراضي خصبة كانت ميتة فيما سبق لشركات فلاحية فرنسية استثمرتها، فأصبحت ضيعات جميلة مسقية تتخللها بنايات ضخمة جميلة بقراميدها الحمراء، ثم سلمت أراضي في القرى المجاورة، كإيموزار الكندر وإيفران إلى إدارات ومؤسسات لتبني بهمادور جميلة، فأصبحت هذه القريتان إيموزار وإيفران مصطافين للراحة والاستجمام لموظفي الادارة الاستعمارية ولطبقة الأعيان المغاربة العاملين في المخزن وفي التجارة.

ولا زال المغاربة يتمتعون بهذه المحطات السياحية إلى يومنا هذا، لكنها أصبحت عرضة للخراب والانهيار. فوزارة الداخلية استحوذت عليها، ولم تغيرها ولم تصلحها ...

وقبل ختم فصل الفلاحة، وجب أن نذكر بأن الضيعات الفلاحية الاستعمارية قد أنتجت الكثير، فمونت المغرب وأوروبا في حروبها. ولكن بعد الاستقلال، أصبحت في ملك القطاع العام المغربي، كشركتي «سوجيطا» و «كوماغري» و«صوديا»، وكذلك في الملك الخاص للمتقربين من الادارة. لكن الضيعات لم تعرف إلى يومنا هذا نفس الانتاج ونفس الرونق التي كانت عليه أيام الحماية نظرا لعدم استقامة بعض المتدبرين.

فلا زلنا نرى اليوم في طريق فاس ومكناس وطريق سيدي قاسم وإيموزار الكندر عدة ضيعات فاخرة ومغروسة بأحسن المنتوجات من صنع الحماية الفرنسية، تسيرها اليوم شركات شبه حكومية، لكن بناياتها أصبحت معرضة للخراب بعدم الاعتناء والاهتمام بها من طرف بعض الموظفين المهملين وعديمي الضمير المهني ...

الفصـــل العاشـــر

إنشـــاء التعليـــم والصحـــة بفـــاس

وإذا كانت الحماية الفرنسية قد غزت المغاربة بحد السلاح، فإنها قد غزتهم كذلك عن طريق الصحة والتعليم، لأن الطبيب والمعلم في نظر الفرنسيين رسولا الحضارة وبطلا التقدم، ومحسنان للانسانية، ولأن الصحة والتعليم هما أداتا السلطة في الحكم ...

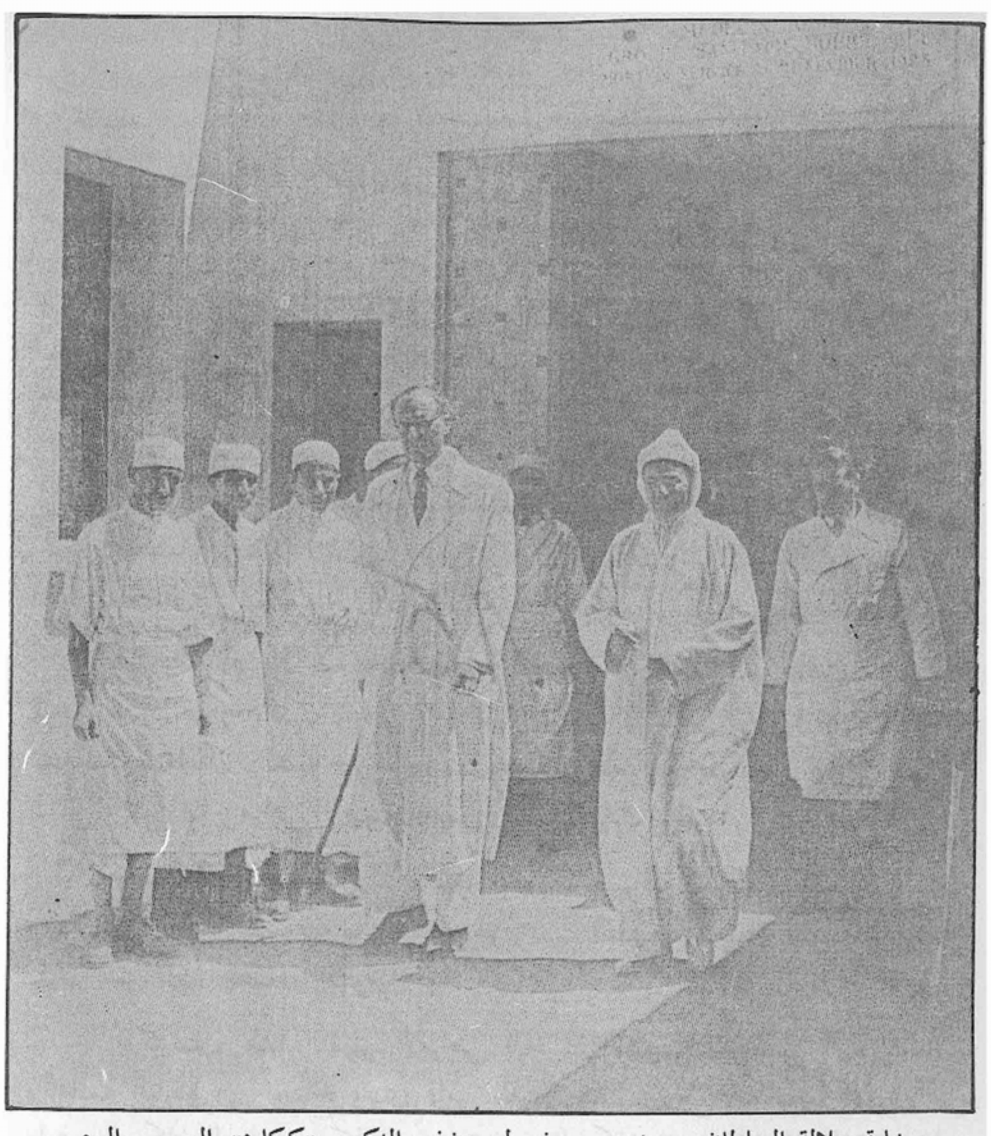
فالحالة الفيزيولوجية والباطولوجية للمغاربة في غالبيتهم كانت سيئة منذ قرون، فكل تقارير الأطباء اللذين قاموا بزيارات عبر الأقاليم المغربية تصف الحالة الذميمة للأطفال والشيوخ والرجال، وتصف الأمراض الخطيرة فيهم كمرض السل والسرطان وأمراض العيون وحمى المستنقعات وغيرها.

وقد قامت الحماية عبر الصحة العمومية بمراقبة السكان. وكان أول تقرير وضع عن الحالة الصحية بالمغرب، هو تقرير الطبيب «مورا» عن فاس الذي كان يسير أول مصحة عمومية بها.

فاكتشف هذا التقرير الأمراض الخبيثة كالتيفويد وحمى المستنقعات والزحمة الواردة من أوساخ وادي فاس الذي كانت ترمى فيه يوميا الأزبال من طرف السكان المهملين وكذلك من تجمع السكان في الزوايا طلبا للاستشفاء، ومن الأسواق الأسبوعية ...

ولقد قامت المصالح الطبية للحماية بمحاصرة هذه الأمراض المتوالية من الكوليرا والطاعون والتيفوس ومرض القرعة [1].

1. راجعوا في هذا الشأن المحضرات الشهرية للمصالح البلدية بفاس سنة 1920 و 1922 والإدارة العامة للمصالح الطبية ...



زيارة جلالة السلطان محمد بن يوسف لمستشفى الدكتور «كوكارد» المسمى اليوم بمستشفى ابن الخطيب، فانظروا إلى نظافة المستخدمين المغاربة ... !

وكانت هذه الأمراض تؤثر على عدد سكان فاس ونواحيها، فبمحاربة هذه الأمراض الفتاكة، ازداد عدد السكان وذلك بانخفاض عدد الوفيات وارتفاع عدد المواليد. فمن سنة 1916، وهي سنة الاحصائيات الأولى بالمغرب، إلى سنة 1925، نقص عدد الوفيات بالنصف، وارتفع عدد المواليد بالربع. لكن الوفيات

الغير المصرحة كانت كثيرة، وخصوصا لدى الأطفال المعرضين لبوحمرون وللتيفوييد، ثم أن أسباب الوفيات لدى الفاسيين كانت لا تذكر، لكن التصريحات المذكورة لدى المصحات تصرح بنوع أمراض السل والرئة وأمراض التناسل وأمراض العيون والقرعة ...

وتبعا لقولة المقيم ليوطي لدى الفرنسيين بأنه في المغرب «طبيب يساوي فيلقا عسكريا» ونظرا إلى تضحية بعض الأطباء والممرضين الفرنسيين الذين توفوا بالمرض، وهم يمارسون أعمالهم العلاجية لدى المغاربة الذين فتك بهم التيفوس، فقد خلقت الحماية ابتداءا من سنة 1913، مديرية كبيرة للصحة، وهي شبه وزارة الصحة في يومنا هذا، ويعمل بها أطباء رؤساء، فشيدت مستشفى لكل إقليم، وركبت جماعات صحية متنقلة بالبغال عبر التلال والجبال، فكان من حظ فاس أن أنشئ بها بعجالة مستشفى يؤطره أطباء وتخرج منه جماعات صحية تنتقل عبر ضواحي المدينة، تطبيقا لقولة ليوطي بأن تكون الصحة متقدمة بثلاثين سنة على فرنسا، وأن تكون سلاح التدخل السلمي لفرنسا بالمغرب. فأنشأ ليوطي، داخل المجلس البلدي الذي كان جل أعضائه من أعيان فاس، لجنة صحية تبحث في كل ما هو معماري أو عمومي أو خصوصي، أي تفحص البنايات الجديدة والمقاهي والمطاعم والفنادق وغيرها لتطبق بها شروط الصحة والسلامة، فتنصح وتقنع وتراقب وتعاقب وتعمل في المساكن والحدائق والأزقات والحوانيت والسقايات للقضاء على الأمراض الفتاكة، فتراقب في المجازر نقل اللحوم في ظروف نظيفة لاستهلاكها وتتابع نقل الأزبال المنزلية التي كانت تحرق في حينها لمحاربة الذباب والناموس الذين كانوا ينقلون العدوى بسهولة وخصوصا في مدينة جافة وحارة، كفاس. وتنشئ محطات للبول والخراء في محلات محروسة ومحدودة للناس الذين ليس لهم ملجأ ولا مأوى لقضاء حاجياتهم الطبيعية. أما ما يتعلق بالناس الذي كان لديهم مأوى، فتلزمهم اللجنة الصحية بوضع حنفية متنقلة لتطهير بيوت الماء وأوراق مسمومة لقتل الذباب وغبار «كريزيل» وبيريطر، كذلك أنشأت جماعة لمحاربة الفيران تجمع كل الجرذان الميتة في الأزقة الفاسية القديمة، فتسدي خمس فرنكات لكل فأر مقتول حتى قيل في فاس ما بين 1913 و 1915 أنه قد قتل ما يقرب من خمسين ألف فأر كل يوم عند دخول الجنود الفرنسيين ... !

جهود المجلس البلدي الفاسي في الصحة

وقد عمل المجلس البلدي الفاسي ما بين الحربين العالميتين على محاربة التيفوس بفتك القمل لدى السكان، وذلك بخلق محطات دوشية مائية، فتجمع الناس عن طريق القوات المسلحة بإجبارهم على الغسل وعلى استعمال الصابون الأسود والكريزيل، ثم بإطعامهم، فتطرد المهاجرين القرويين إلى قراهم لأنهم كانوا يردون بكثرة للزوايا والفنادق والمقاهي البلدية باستثناء استخدام من هو أقواهم في الأشغال البلدية، فكانت أحياء المدينة تظهر زاهية وأنيقة وسكانها نظيفون ...

وقد عمل المجلس الفاسي على وضع حواجز صحية لا ترخص بالدخول إلى المدينة إلا من كان لديه سكن أو عمل معروف، فيعالج المريض ويطرد البئيس الذي لم يمسه المرض وذلك بعد تنظيفه، أما خارج المدينة، فكانت تكتشف الجهات المشكوكة ويستخدم الجير والكريزيل حينا ...

ولا ننسى بأن نذكر بأن البورجوازية الفاسية عملت عبر لجن الخيرية الاحسانية على مواجهة قوافل القرويين، وبالخصوص من إقليم تافيلالت، وهم في حالة من الجوع والوسخ بالقرعة وبالقمل. فكانوا يستعملون بعض الأملاك المحبسة لايوائهم، فيطعمونهم بالخبز والحريرة ويلبسونهم الجلابة ... وهكذا كانت فاس محمية من الأمراض الفتاكة التي كانت ترد عليها اعتياديا من الجنوب قبل دخول الصحة الفرنسية المبنية على أسس علمية ...

إنشاء التعليم الرسمي بفاس

لم ينطلق التعليم الرسمي الحقيقي بفاس إلا بعد سنة 1920 رغم إنشاء إدارة التعليم سنة 1915 بالرباط، ولقد كان برنامج التعليم الفرنسي يهدف إلى تهذيب أبناء الأعيان فقط لا أبناء الجماهير الشعبية، فيسعى إلى تحرير الأفكار من المعتقدات الزائفة في الاسلام وتحرير البؤساء من الاقطاعية المحلية وتحرير المرأة من غطرسة الرجل... !

وبما أن المغاربة كانوا بأجمعهم يتخوفون من تأثير المدرسة الفرنسية المسيحية العلمانية الجمهورية على عقول أبنائهم بسبب المتخلفين، فقد كان لا يذهب إليها بادئ الأمر إلا أبناء عملاء الفرنسيين ومستخدمي القنصليات وكثير من اليهود المغاربة. وقد تجلى ذلك بوضوح في مدينة فاس، لكن الحكام الفرنسيين ثابروا في تشجيع التعليم لدى كل المغاربة بمنحهم أجر الحضور وإعطائهم المأكولات في الغذاء وإمكانية توزيع أرباح التعاونيات المدرسية والتقليدية. لهذا صعد عدد المتمدرسين من 210 تلميذ سنة 1912 إلى 2887 سنة 1920، وهو عدد مرتفع للغاية آنذاك بالنسبة لسكان المغرب ...

وكان من حظ فاس أن فتحت بها أبواب إعدادية (كوليج) عربية فرنسية سميت باسم مؤسس المدينة «مولاي ادريس» غاية من الادارة الفرنسية إيقاف هجرة الشباب المغربي إلى الشرق بالقاهرة أو دمشق أو قسطنطينة طلبا للعلم العربي الاسلامي [1]، وغاية منها كذلك تعليم الحضارة الفرنسية باللغة الفرنسية وكذلك اللغة العربية والاسلام. أما تعليم البادية، فكان يلقن البربر لغتهم بالحروف اللاتينية مع الفرنسية ومع نبذ اللغة العربية. ففي أول الأمر، خلقت مدارس للنخبة المتعاونة مع فرنسا باسم مدارس الأعيان، وعلى رأسها فاس، ثم خلقت في مرحلة ثانية، مدارس للطبقات الفقيرة التي لم تلعب أي دور سياسي يذكر، لكنها متفتحة على الأفكار العصرية والديمقراطية وطامحة في التقدم الاجتماعي.

فوجهت العناصر الجيدة الواردة من المدارس الشعبية الابتدائية إلى مدارس التكوين المهني أو المدرسة الصناعية والتجارية بالدار البيضاء المنشأة سنة 1916، أما التلاميذ النجباء المسلمون فكانوا يلوجون إلى إعدادية مولاي ادريس أو إعدادية مولاي يوسف بالرباط اللتان كانتا لهما صبغة سياسية أكثر من صبغة مدرسية، حيث كانتا مخبر السياسة التعليمية للاقامة العامة بالمغرب، ولأن فرنسا كانت تبتغي أن تجعل من هؤلاء الطلبة المتخرجين من إعداديتي مولاي ادريس ومولاي يوسف بالرباط أن يشعروا بتفوق وتقدم الحضارة الأوروبية بدون أن ينسلخوا عن مجتمعهم، الشيء الذي سيحدث لهما خطرا على مستقبل إقامة الفرنسيين بالمغرب وبإفريقيا.

1. اقرأ عن كوليج مولاي ادريس : تقرير السيد بول مارتي أحد مديري التعليم بالمغرب سابقا.

وكان التعليم الفرنسي بصفة عامة فعاليا بالمغرب حيث كان يخصص للفرنسية حصة الأسد في تلقين المواد اللغوَية والعلمية والاجتماعية والطبيعية (20 ساعة) ؛ ويخصص للعربية إحدى عشر ساعة وذلك لتلقين مواد اللغة والدين والقانون. وكان يتحاشى أن يلقن للمغاربة الشباب، معارك فرنسا السياسية والدينية والفلسفية أو أفكار فلاسفتها الثوريين للقرن الثامن عشر، لكن التعليم كان محدودا لفئة قليلة، حيث أن الميزانية المخصصة له كانت طفيفة بالنسبة لزمانه ... ففي مجموع سكان المغرب الذي كان يتراوح عددهم ما بين خمسة إلى عشرة مليون نسمة تقريبا ما بين 1912 و 1956، كان عدد التلاميذ لا يتعدى 3.000 تلميذا سنة 1920 و 20.000 تلميذا سنة 1956 ...

الفتـــاة الفاسيـــة فـي التعليـــم

لم تلج الفتاة الفاسية المدرسة لتتعلم الفرنسية إلا بعد الثلاثينات، نظرا لمعارضة المجلس البلدي للمدينة لانشاء مدرسة للفتيات [1]. فمن قبل، كان يخصص للبنات سوى مركز لتعلم دروس الحياكة وصنع الزرابي. لكن مع الزمن، اختلطت مع الذكور في الكوليجات (الاعداديات)، وقليل منهن حصلن على الباكالوريا لأنهن كن يتزوجن مبكرا (15 سنة).

فخارج نطاق تعليم الفتاة الفاسية، فتحت الحماية الثانويات (الليسيات) في وجه بعض أبناء الأعيان المغاربة والمتعاملين، ثم سمحت لبعضهم بولوج الجامعة في أواخر الحماية، ثم فتحت أيضا مدرسة عسكرية بمدينة مكناس، لكن الطلبة الفاسيين لم يكترثوا بهذه المدرسة نظرا لمستواهم التعليمي العالي وعدم رغبة آبائهم في ولوج أبناءهم العسكر الذي كان يراه الفاسي خدمة شاقة وعملا للاسترزاق.

وما كاد يبزغ فجر الاستقلال حتى كان العنصر الفاسي أول النواة التي كونت الحكومة المغربية وإدارتها المركزية والاقليمية نظرا لارتفاع مستوى أبناء فاس في التعليم والثقافة بالنسبة لباقي المغرب ...

---

1. وفي ربيع سنة 1923، عارض المجلس البلدي لفاس فتح مدرسة للبنات بفاس رغم حصول المدرسة على تسجيل أربعين من طلباتهن ...

الفصل الحادي عشر

البورجوازية الفاسية وتكيفها مع الاقتصاد الاستعماري

ما أن انطلق المعمرون الفرنسيون في الاستحواذ على الأراضي الجيدة لنواحي فاس واستغلالها بطرق عصرية حتي تلاهم بعض خدام المخزن والحماية، فأخذوا ينهجون سبيل المعمرين، ولكن باستخدام طرق عتيقة واستخدام العمال بأجور هزيلة، بينما كان يستخدم المعمرون الأجانب العمال المغاربة بطرق أكثر إنسانية واجتماعية ... فكانوا بصفة عامة يعتنون بالخدم وبالعمال كما هي عادتهم الديمقراطية الآن في بلادهم (حيث ضجت بالمهاجرين المغاربة ...)

وقد حكي بأن سنة 1913، أي سنة بعد دخول الحماية إلى المغرب، وقع جفاف كبير بناحية فاس، وبالخصوص بالحياينة وبني سادن، شرق السايس فهلكت الماشية، وكان الفلاحون يأكلون جذور الأعشاب لمواجهة الموت، لكن سنة 1914، كانت من أحسن سنوات الانتاج الفلاحي، فأضافت سلطات الحماية منتوجات فلاحية من بلادها لتموين السكان، وأمرت بعدم ذبح إناث الأبقار والأكباش بظهائر (قوانين) مخزنية وعدم تصدير القمح إلى الخارج، وعلى هذا المنوال، تحسن الانتاج والتموين بفاس وبالمغرب بكامله. فارتمى البورجوازيون الفاسيون في شراء وبيع السكر والشاي والصابون والقطن، وخصوصا في سنوات الحرب العالمية الأولى (1914 ــ 1918)، فأثروا ثراءا فاحشا، فأصبحت الحياة مزدهرة لدى الفاسيين وخصوصا في الثلاثينات حيث صعد ثمن الأراضي الفلاحية والحضرية، فكان الاقبال شديدا من طرف الأوروبيين المهاجرين الذين اشتروا الأرض كذلك بحيث كان ثمن الهكتار

يساوي ما بين 60 و 70 فرنكا، فأصبح بين عشية وضحاها يساوي 100 إلى 300 فرنكا حسب جودة الأرض بين «التيرس» و «الحمري». وحسب الأرض المنظفة أم لا.

وقد أحصي بأنه وردت إلى المغرب استثمارات تعد ما بين 150 إلى 200 مليون فرنكا من بينها 25 مليون في شراء الأراضي الفلاحية و 40 مليون في المؤسسات الصناعية [1].

التسويـق والتصنيـع بفـاس

وعلى ذكر المؤسسات الصناعية وإنشاء فنادق ومطاعم وحانات جميلة بالحي الجديد لفاس، خلقت مؤسسات للقرض بتعاون مع الملاكين المغاربة لشراء كل ما هو منتج ومربح كالأراضي العقارية والفلاحية بسلفات مضمونة وإنشاء شركات للبناء وإنتاج الاسمنت والزليج وقنوات مرور المياه وآلات طحن الحبوب وصنع الثلوج والمشروبات المتنوعة كحولية أم غير كحولية. فأنشأت شركات صناعية لها تمثيليات بفاس شارك فيها البورجوازيون الفاسيون، كشركات الاستيراد للقطن والأجهزة المختلفة، ومنها شركة «نانطيز Nantaise» المشهورة التي تخصصت في استيراد المواد الخشبية والحديدية وشركة «باريس ماروك» وشركة الجير والاسمنت بالمغرب وشركة نهر سبو ... فانطلقت الصناعة والتجارة والفلاحة بفاس أيما انطلاق، وخصوصا بعد الحرب العالمية الأولى، فحل الازدهار والرخاء لدى العائلات الفاسية التي كانت تقيم حفلات طويلة الأمد، وكنت ترى الأزقة كلها مليئة بالناس يطعمون فقراء البادية بإفراط نظرا لكثرة الرزق والخير بعد المجاعة الكبرى التي كانت تعيشها فاس في عهد السلطانين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، وبعد الأمراض الفتاكة التي كانت ترهب وتخيف السكان وبعد الفوضى التي كانت تعم مختلف أحياء المدينة بالنهب والسرقات والجرائم الكبرى.

كل هذه الاستثمارات الفرنسية نفعت البورجوازية الفاسية باستقرارها في المغرب نظرا للضرائب المرتفعة بفرنسا ولغلاء اليد العاملة بها. فلقد حققت هذه

1. من كتاب : «الاستثمارات الفرنسية بالمغرب من 1912 إلى 1939» ـــ وهو من تأليف «غيان» Guillan.

الاستثمارات الازدهار من شواطئ الأطلس إلى فاس بالمغرب النافع، فكان عهد السلطان مولاي يوسف عهد الرخاء للفاسيين التجار والشرفاء والعلماء بحيث سمي ذلك العهد بالنهضة الاقتصادية للمغرب [1].

ولما توفي السلطان مولاي يوسف بغتة، وقع اضطراب بالمدينة لمدة أيام، انتظار تعيين السلطان الجديد من طرف الاقامة العامة الفرنسية والموافقة عليه من طرف علماء فاس ولو شكليا ... فسقط ثمن الأراضي العقارية التي كانت تسجل في المحكمة الشرعية الموجودة بفروعها بفاس الجديد والقرويين والرصيف [2].

فاستمر التعاون بين التجار الفاسيين والفرنسيين في استغلال الأراضي الفلاحية والصناعة والتجارة إلى أن ظهر أسلوب جديد في زرع الأرض باستعمال المحراث الحديدي واستعمال السميد (السوبير فوسفاط) والحرث التحضيري للأرض لاخفاء الرطوبة.

فانفصمت المشاركة ما بين الأجانب (الذين كانوا يفضلون أسلوبهم العصري) والفاسيين (الذين كانوا يتعلقون بأسلوبهم القديم) في حرث الأرض بالمحراث الخشبي وعدم استعمال السميد وتعويض الفلاح أو المستخدم المغربي بأجر زهيد بالنسبة الأجر الذي كان يعطيه الأجنبي مع احترام حقوق الضمان الاجتماعي ؛ كذلك وقع الانفصام ما بين الفاسيين والأجانب في تسويق الخشب والحديد ومواد صناعية أخرى نظرا للاختلاف في عقلية التدبير والتسيير. فكان الفاسيون يصدرون ويستوردون ويستغلون على شكلهم الخاص حتى أصبحوا أعضاءا في غرفة تجارية محلية خاصة بهم، بينما اتخذ الأجانب مجمعا وناديا تجاريا خاصا بهم يذهب إليه بعض اليهود التجار من فاس ...

ففي ظرف بضع سنين، أصبح الفرق شاسعا في التجارة والتمليك ما بين الأوروبيين واليهود المغاربة من جهة، والمسلمين من جهة أخرى. فاتخذت فرنسا المغرب كبلاد تمونها بالمواد الأولية في الميادين الفلاحية والمعدنية والصناعية،

1. لا سر أن نذكر بأن العلماء والشرفاء والتجار كانوا يساندون فرنسا لاحباط ثورة الريف التي كانت تهدد مصالحهم المادية ...

2. وكان يسير هذه المحكمة العلماء : عبد الرحمان الفاسي، ومحمد بلعربي العلوي وابن رشيد العراقي ...

وخصوصا أثناء الحربية العالميتن اللتين خاضتها فرنسا ضد ألمانيا حيث كانت تنقصها المواد الغذائية ...

إهمال الشؤون الاجتماعية لصالح الفاسيين العاديين

واعتبارا بأن المغرب يعد ذا مردودية عاجلة بسبب وجود ثروات طبيعية هائلة ورخيصة، وضعت الحماية الفرنسية للمغرب ميزانية وفتحت باب القروض له بكل سخاء لتنشط إدارتها به، لكن الحماية لم تخصص الاعتمادات الكافية لصالح صحة وتعليم المغاربة المسلمين باعتبارهم لا ينتجون ولا يعملون في مستوى الأوروبيين. فمثلا في ميدان الصحة، كانت الحماية تخصص بمدينة فاس، نفس الاعتمادات للمصحات المغربية الموجودة بالمدينة القديمة وللمصحات الأوروبية بالمدينة الجديدة، بينما يكون الأوروبيون الأقلية الأدنى لسكان فاس، وخصوصا في محاربة أمراض القرعة والسيفليس والتراخوما وفي تشييد مراكز صحية تسمى «بلازاري» تستخدم لمحاربة الطاعون والتيفوس. وكان قدر الاعتمادات مثلا لا يتعدى سنويا 800 ألف فرنكا، بينما كانت تقدر الاعتمادات للمصحات الجبلية (Sanatoriums) المخصصة للأوروبيين، وخصوصا مصحة أزرو، بالملايين من الفرنكات ما قبل الحرب العالمية الثانية حيث كانت مؤطرة من طرف أطباء أكفاء وآليات حديثة عصرية لذلك العهد.

كذلك كانت تبرز فرنسا الفوارق في التعليم الخاص بالأوروبيين واليهود والمسلمين وكذلك في مصالح البريد بفتح مكاتب في المدينتين الحديثة والقديمة وفوارق في التجهيز بالاطارات الكفؤة وبالأقسام المنظمة المخصصة للتعليم وبخلق النوادي والميادين الرياضية والمسابح والخزانات للأوروبيين واليهود المتطورين لا للمسلمين الذين يريدون أن يعيشوا في تقاليدهم المخزنية البالية خوفا من «الحشومة» التي تسيطر على المجتمع المغربي الفيودالي آنذاك ...

فالنوادي الثقافية والرياضية والمسابح كان يتحاشاها مثلا المسلمون لكيلا تبرز نسوتهم، أما اليهود والنصارى، فقد كانوا يبرزون علانية نساءهم ويتعاطون للرياضة المتنوعة ويجلسون في المطاعم والمقاهي الفخمة بصفة مختلطة ...

فلقد خلقت سلطات الحماية الفرنسية بمدينة فاس لكل شريحة من المجتمع الأوروبي واليهودي ما تستحقه من نادي ترفيهي ورياضي، كنادي لخدام مصالح البريد ونادي لخدام السكك الحديدية ونادي لخدام الماء والكهرباء ونادي للشرطة وضباط الجيش، ونادي للأساتذة والطلبة، ونادي لهواة الطيران وتسلق الجبال ورمي الحمام. فكانوا يتمتعون بالراحة الكاملة في هذه النوادي التي تحتوي على مسابح وميادين للرياضة ككرة السلة وكرة المضرب واللعب على الخيول ومقاصف للأكل والشرب بأبخس الأثمان. فكانت تقام حفلات سينمائية ومسرحية تبهج الناظرين، بينما كان كثير من المسلمين يقاطعون هذه النوادي والمسابح بسبب تقاليدهم وعاداتهم القديمة وخوفا من أن يصبحوا نصارى أو علمانيين أو ما شبه ذلك على ما كان يروجه بعض المفكرين الاظلاميين المتطرفين ...

تغييـرات فـي العقليـة الفاسيـة بالتنقـل والمعمـار

لكن عندما أنشأت الحماية الفرنسية القطار الحديدي داخل إطار الاصلاحات الموعود بها، بدأت تتغير عقلية المجتمع الفاسي التقليدي تدريجيا وخصوصا عندما ربط القطار الحديدي فاس بمدينة الرباط عبر القنيطرة وسيدي قاسم (بوتي جان سابقا) وذلك في شهر أكتوبر 1923، وهو عبارة عن قاطرات بخارية وكهربائية. بينما كان النقل يتحقق فيما سبق على ظهر الابل والبغال ما بين فاس والرباط لتبادل السلع فيما بينهما [1].

وعندما شُرِعَ سنة 1913 في بناء طرق محجرة ثم من بعد مزفتة ما بين فاس والرباط، العاصمة الجديدة للسلطنة المغربية، بدأت العربات تستعمل وهي مجرورة بالابل أو بالبغال على الطريقة الأوروبية وتسمى «المازيلا» وتجرها سبع بغال، ثم تلت «المازيلا» سيارات دخانية ما لبثت أن تطورت ابتداءا من سنة 1920 ...

1. نقل القطار الحديدي مثلا سنة 1926 ما يقرب من 622 قنطارا حسب إحصائيات حركة النقل الحديدي.

فأصبحت سرعة النقل تجتاح الفاسيين في نقل سلعهم من مراسي المحيط الأطلسي إلى مدينتهم بأضمن وأرخص الأثمان، وبدأ الفاسيون يقلون القطار، وبالخصوص في الطبقة الرابعة لأنها أرخص الأسعار، أما الأعيان منهم، فكانوا يتنقلون في الدرجة الأولى أو الثانية، وكانت للمسلمين قاعة انتظار في المحطة خاصة بهم. أما الأعيان منهم، فكان يسمح لهم بالدخول في قاعة انتظار الأوروبيين للتنقل في الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة للقطار.

فأصبح الفاسيون يتصلون ويتزاوجون مع أهل مدن السواحل المغربية، وخصوصا مع السلاويين والرباطيين، ومنهم من استوطن الرباط كثيرا للعمل في دار المخزن وفي الادارة الفرنسية، ونذكر منهم بالخصوص عائلات الكتانيين والبدراويين والفيلاليين والعلويين والبقاليين والتازيين.

البنـــاء و التعميـــر

ويلزم أن لا نجهل حب ليوطي، منظم المغرب العصري، في بناء وتشييد مدن جديدة محادية للمدن القديمة المحيطة بالأسوار العتيقة المهدمة المثيرة للأوساخ والأزبال، والفيران، كما يوجد عليه الحال الآن في مكناس وفي فاس، ولقد استوطن الأوروبيون في الأوائل المدن العتيقة، لكن ليوطي شعر حينا بمغبة استقرارهم بها حيث شرعوا يفتحون مطاعم ومقاصف لبيع الخمور للمسلمين، فأمر بواسطة إجراءات إدارية قاسية بناء مدن جديدة لإسكان الأوروبيين فقط، احتراما لتقاليد المسلمين وحفاظا على جمال المدن القديمة، ثم رخص بوضع المصالح الادارية والبريدية والبنكية والصناعية والمقاهي والمطاعم الخاصة بالأوروبيين بالمدينة الجديدة حسب تخطيط المهندس المعماري الشهير «هانري بروسط ــ Henri Prost».

وهدفا لتزيين المدينة القديمة لفاس، أمر ليوطي بخلق مصلحة للفنون الجميلة والآثارات التاريخية التي أنشئت في شهر نونبر 1912 تحت مسؤولية السيدين طرانشان وتوريلي. فشرعت هذه المصلحة في عملها بواسطة ظهير 3 يبراير 1914 الخاص بالحفاظ على البناءات التاريخية وعلى الفنون الجميلة وحماية الأمكنة التي تحمي هذه البناءات والمناظر الطبيعية. فمثلا في فاس، قرر

ليوطي بناء منطقة يوازي عرضها ثلاثين مترا داخل الأسوار ورخص بالبناء داخلها بدون موافقة مصلحة الفنون الجميلة. وفي علو يفوق مستوى الأسوار التاريخية.

هذا وقد عينت مصاحة الفنون الجميلة مفتشين ومراقبين أصحاب الأذواق الرقيقة وفنانين في تكوينهم، لانقاذ بنايات مهددة بالاضمحلال ولمحاربة بنايات فوضوية ...

أما المجلس البلدي لمدينة فاس، فقد كان يستخدم الحرفيين لبناء وتنظيف المدينة القديمة [1]، وكانت الغاية من ذلك أن تصبح المدينة الدينية في أحوال جميلة أحسن مما كانت عليه أيام فوضى واستهتار المخزن المنكمش على نفسه، وذلك بأقل المصروفات، وشرع المجلس كذلك في إصلاح الشبكة المائية وتحسين السقايات العمومية بزخرفتها وفتح الأبواب الضرورية للخروج والدخول إلى المدينة وفتح الدروب المغلوقة، ثم وضع الأخشاب الكهربائية وتزيين المتاحف الأهلية كمتحف البطحاء وحديقة «جنان السبيل».

وقد رخص الظهير الذي وضعته الحماية يوم 31 يوليوز 1914 لنزع الملكية في سبيل المصاحة العامة، أن تخصص أراضي لمناطق خضراء للنزهة والترفيه، وكذلك استخدم هذا الظهير لخلق ثكنات عسكرية كثكنة «ظهر المهراز» التي استقرت ما بين المدينة الجديدة والأحياء المغربية لتظهر للمغاربة قوة وعظمة فرنسا بدعوى ضد الفتنة الدائمة ما بين الريف والحاضرة ... [1].

فقد أوضحت المصالح النفسانية للحكام الفرنسيين بأن القائد المرشال ليوطي لم يكن في نيته خلق العنصرية ما بين الأهليين والأوروبيين، بل احترام تقاليد وعادات الأولين والآخرين، فلم يكن من المعقول خلق حانات ومقاصف أو حوانيت تبيع لحم الخنزير أو الخمور أمام المساجد والزوايا وبيوت المتدينين المتصوفين، بل كان يتوجب خلقها في مدن جديدة بعيدة عن المدن الأهلية. ووسط سكان أوروبيين متعودين على استهلاك المحرمات على المسلمين ...

ولم يتمكن ليوطي طول انتدابه بالمغرب أن يصلح بتدقيق المدن الأهلية، بل تركها لمن خلفوه، لكنهم أفرطوا في تخصيص اعتمادات كافية، وخصوصا

1. فقد كان يستخدم المجلس البلدي الفاسي سنة 1924 ما يقرب من 46 معلما في البناء و 116 للاصلاح العام و120 للتنظيف.

1. ثكنة «ظهر المهراز» أصبحت في عهد الاستقلال مركزا للدراسات العليا بفاس.

فيما يتعلق بقنوات المياه الصالحة للشرب وسحب المياه المستعملة، لأن الاعتمادات كان يَتَقَاسَمها مجلس حكومي يسيطر عليه أوروبيون أنانيون ويوزعون الاعتمادات بحيف ظاهر، الشيء الذي أثار الجيل المغربي لسنة 1930 الذي تلقن مبادئ العدالة والمساواة في المدرسة الفرنسية الثورية ... ففضح هذا الجيل حيف الادارة الفرنسية بالمغرب في دفتر للاصلاحات، وسماها بسياسة «الجنس الممتاز»، لكن الادارة الفرنسية ظلت صامتة عن حق المغاربة في الدخول إلى المدينة الاستعمارية بصفة جاهرة.

إصلاحات إيجابية لا بأس بها ...

وعلى كل حال، فبالنسبة لعهد ما بعد الاستقلال، خلق مؤسسوا الحماية مدنا جديدة يتمتع بها الآن المغاربة في عهد الاستقلال. فيلاحظ اليوم أفواج الشباب الأنيق يجوب شوارع مدينة فاس الجديدة عند مغيب الشمس أو أيام الأعياد الأسبوعية، فيلجأون إلى فيلات وعمارات تحوم حولها مناطق خضراء وتمتاز بحمامات ساخنة للتنظيف، لكن حركة السيارات بدأت تقلق وتعكر الجو ...

لقد كان من واجب أصحاب الحماية خلق حضارة عصرية بالمغرب لمواجهة انتقادات الصحافة العالمية والسواح القادمين إلى المغرب، وذلك على يد ليوطي الذي كان يحب بلاده فرنسا التي خلقت امبراطورية استعمارية. لذا تحتم على ليوطي أن يجعل من المغرب بلدا نموذجيا منظما بقوانين عصرية لا زلنا نطبقها اليوم في جميع الميادين، فكان بذلك اعتراف بالجميل لعمل ليوطي الذي استمر في المغرب بعد سن تقاعده القانوني. لقد كان الرجل يبلغ أكثر من ستين سنة، وكان يتمتع بصحة سيئة، ورغم هذا، فقد كان يباشر عمله البناء بيد من حديد بمساعدة وقرار حكومة «برياند» الصادر يوم 10 أبريل 1917. ومن المعلوم أنه لم يسبق للمغرب أن كان دولة لها قوانين ثابتة تواكب القرن العشرين، بينما ظهرت هذه القوانين في القرنين الثامن والتاسع عشر بأوروبا وأمريكا. فأصبح للمغرب قوانين تنظيمية تحاول إرجاع الأمن والطمأنينة للمغاربة التجار والأجانب تحت سلطة رجل ذي نفوذ يتفقد على ظهر جواده الحاجة

الصغيرة والكبيرة في عمله بالمغرب ... فكان يمتطي كل مساء فرسه الأبيض بالرباط العاصمة الادارية للمغرب ويحوم في الأسواق بدون خوف ليتفقد وجود المواد الغذائية للمستهلكين ويصعد إلى الاقامة بعد هذا ليسهر على بناء المديريات (الوزارات الحالية)، فمرة ضرب بيده المسؤول عن ورش بناء مديرية المالية حيث وضع صاحب الورش القراميد الحمراء عوض القراميد الخضراء التي قررها، قائلا له بأن المغرب ليس فرنسا ولا يجب إلا استعمال القراميد الخضراء ... فأجبره على قلعها حالا وإلا سيسجنه ... هكذا كان ليوطي صارما ليبني المغرب ويطبق فيه إصلاحات جذرية تحتية وفوقية ...

الفصـــل الثـــاني عشـــر

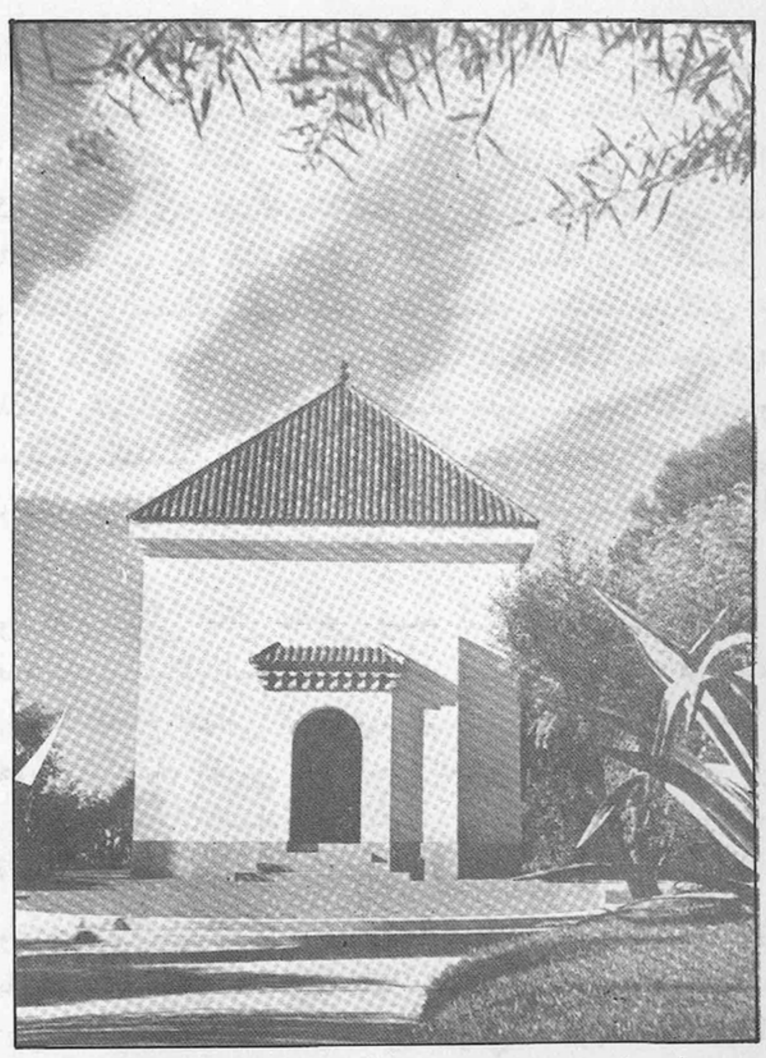
فـــاس مـــا بيـــن 1920 و 1933

المعروف أنه ابتداءا من هذه الحقبة، عاشت فاس فترة حرب الريف العصيبة كان يقودها محمد بنعبد الكريم الخطابي هو وعائلته من سنة 1921 إلى سنة 1926، وقد كانت سببا في تنحية المرشال ليوطي من حكم المغرب لأن حكومة «بوانكاري» اعتبرته بأنه فشل في سياسة التهدئة التي كان يشنها لغزو قبائل المغرب، إما بواسطة الزوايا أو بهيبة المخزن أو التمويل العيني والمادي للقبائل المصابة بالمجاعة، وقد حملته حكومة بوانكاري مسؤولية احتمال غزو مدينة فاس على يد الجنود الريفيين الذين كانوا يتقدمون شيئا فشيئا من المدينة، رغم أن ليوطي حصل بسهولة على مساندة السلطان والعلماء والشرفاء والتجار الفاسيين لمواجهة محاربي الريف خوفا من الفوضى التي كان يتوقع أن تحدث في مدينتهم بقلب الأوضاع في حكم البدويين على الحاضرة المثقفة ...

وقد قام ليوطي بكل ما في وسعه لمواجهة حرب الريف، فطالب بالمساعدة لدى القبائل الخاضعة للحكم الفرنسي على يد قوادهم، وعلى رأسهم الباشا الحاج التهامي الجلاوي، ثم جند رؤساء الزوايا، وعلى رأسهم شيخ الطريقة الكتانية، الفاسي عبد الحي الكتاني الذي جال في كل ربوع المغرب لتجنيد السكان الساذجين والأميين باسم الاسلام ضد حرب الريف المهددة لفاس وللمخزن الشريف ...

ولقد وضع ليوطي تصميما لينا لمحاربة قادة حرب الريف لم يلق حبور حكام باريس الذين كانوا يساندون حلها بالقوة على يد المرشال بيتان، البطل المغوار بفرنسا، فكانت بذلك نهاية مأمورية ليوطي بالمغرب سنة 1925. فقبل مغادرته للمغرب وبعدها، صدرت عدة كتب تاريخية تمجد عمله الحضاري

بالمغرب، وكتبها مغاربة وفرنسيون، وعلى رأسهم الكاتب المعروف أندري موروا. فكان ليوطي محط إعجاب العالم المتحضر بأمريكا وأوروبا الغربية لأنه في ظرف ثلاثة عشرة سنة من حكمه، أدخل المغرب في لب القرن العشرين بمنجزاته التشريعية والسياسية والصناعية والمعمارية والثقافية وغيرها، زيادة على إرجاع الأمن إلى نصابه في المدن الحاضرة ...



ضريح المرشال بالرباط المتواضع، وقد حطمته وزارة الداخلية لبناء مكاتبها

لقد مشى الفاسيون في أثر وطاعة ليوطي منذ وصوله إلى المغرب وحتى بعد وداعه في مرسى الدار البيضاء عند ما صعد سنة 1925 إلى الباخرة التي نقلته إلى فرنسا حيث كانوا يرون فيه أنه كان يحب المغاربة في سلوكهم الأخلاقي والأدبي [1] ولأنه أتى إلى المغرب حسب نظريتهم لتطبيق طرف من حقوق الانسان، فألف بعض علماء فاس (ولا حاجة لذكر أسمائهم) بعض القصائد الشعرية ودبجوا كتيبات في مدح شجاعة وشهامة هذا المسيحي الأعز، حيث أصلح مدينة فاس التي تجسم في نظرهم المغرب كله ودوامة شخصيته وحيث أنه أقر الله به المغرب على عتبة القرن العشرين ليخرجه من ظلمات الاقطاع والنهب والفوضى والعقاب القرن الوسطي اللا إنساني [2].

فأحبه المخزن الشريف، فكان السلطان مولاي يوسف يستشيره في شؤونه، وكذلك السلطان ابنه محمد بن يوسف كان يزوره في تقاعده بفرنسا، وقد حضر جنازته عندما توفي سنة 1933، وكان يزور زوجة ليوطي مدة سنين طويلة ...

لقد تنفس الفاسيون الصعداء عندما انتهت حرب الريف، ونفي من كان يسمى «بالروغي» من طرف المخزن، (وأعني به محمد بنعبد الكريم الخطابي) إلى جزيرة «لارينيون» ليرتاحوا من رهبته. ولما تغيرت الأحوال بالعالم المستعمر، وصعد الجيل المتعلم في مدارس الغرب ليطلب الشغل والعمل لنفسه، بدأ الفتيان الشبان من فاس وبالبوادي المغربية يذكرون بجرأة اسم محمد بنعبد الكريم وشجاعته في محاربة المستعمرين الفرنسيين والاسبان بوسائل بسيطة.

وكان على رأس هؤلاء الفتيان، طالب بجامعة القرويين يسمى محمد علال الفاسي والذي سيتعرف على محمد بنعبد الكريم بالقاهرة، ولكنه يستخالف معه في تنظيم المقاومة المسلحة بالبوادي المغربية ضد الفرنسيين، ثم ستقع القطيعة النهائية ما بين علال وبنعبد الكريم في سنوات استقلال المغرب ما بين 1956 و 1962، وهي سنة وفاة محمد بنعبد الكريم ودفنه

1. «هذا الجنس المغربي الحلو، لقد بقي مهد الأدب والصفات الأخلاقية الأنيقة والحركات النبيلة واحترام الطبقات الاجتماعية فيما بينها ...» من كتاب «ليوطي الكاتب» صفحة 327.

2. أقرأ ما وصفه الكاتب الفرنسي بييرلوتي - Pierre Loti - عن المغرب، صفحة 99 و 100، طبع سنة 1988 بباريس.

بالقاهرة ؛ [1]. كذلك سيتعرف على محمد بنعبد الكريم، ألشاب الفاسي محمد بلحسن الوزاني الذي سيمجده في جرائده ومذكراته التي نشرها ابتداءا من سنة 1933 وسيتعرف عليه في القاهرة، ويسترشده في فترات الكفاح ضد الفرنسيين [2].



محمد علال الفاسي في أواخر أيامه بجانب مؤلف الكتاب

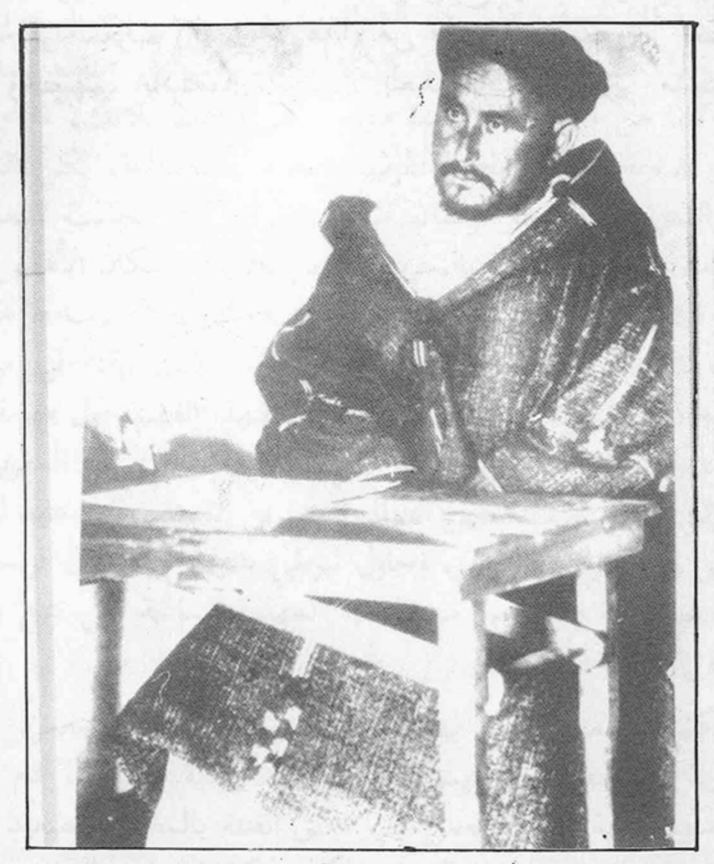
زلـزال حـرب الريـف في فـاس

ففي الوقت الذي كانت الشبيبة الفاسية ملتهية بدراساتها وبإغراءات الادارة الفرنسية نحوها، كانت حرب الريف تدور قرب المدينة العلمية على مقربة من أربعين كيلومترا تقريبا. فقد انضمت عدة قبائل مجاورة للكيان الريفي الذي كان قد قدم ترشيحه لهيئة الأمم بجنيف.

---

1. المعروف أن والد محمد علال الفاسي كان قد أدان في خطبة دينية عمل محمد بنعبد الكريم سنة 1921.
2. إقرأوا كتاب : «حدثني والدي» لعز العرب محمد بلحسن الوزاني، الصادر سنة 1990.

ومن هذه القبائل المحادية لفاس، نذكر منها بني زروال والسلاس وبني جاية وصنهاجة المصباحية والرغيوة وطرف من قبيلة مزياتة وبني مزكيلدة وبني مصطارة حيث حاولت القوات الريفية وضع دائرة مقبضية على المدينة، أي نوع من خط «ماجينو» لتفاوض الحكومة الفرنسية بتاوريرت من باب القوة، ولقد طالب الزعيم محمد بنعبد الكريم من العلماء والشرفاء والتجار والشبيبة الطلابية الفاسية أن ينضموا لحركته بواسطة منشورات ورسل خاصين ويذكرهم بأنه يريد تحرير المغرب من أجدير إلى أجادير، وبناء دولة عصرية، لكن جل الفاسيين لم يستجيبوا، باستثناء بعض الشبان ويحصى عددهم بعدد الأصابع، فمنهم ابن مندوب طنجة، الفاسي محمد التازي وبعض الجنود المغاربة الذين انسحبوا بغتة من الجيش الفرنسي.



ـ الأمير محمد بنعبد الكريم الخطابي ـ

فلقد ذهب بعضهم يواسي المقيم ليوطي في محنته خوفا من أن تفقد فرنسا المغرب ويصرح علانية بأنه لم يعش ظرفا صعبا في عهد الحماية إلا في عهد محاولة هجوم الريفيين على فاس العاصمة الدينية والعلمية، أم المغرب النابض في تلك السنوات ...

ولقد نجح ليوطي بفضل مصالحه السرية والنفسانية أن يحول الشبيبة الفاسية عن أهداف حرب الريف وعن عدم اتباع بنعبد الكريم، «صاحب الساعة»، مدعيا بأن أهل بني ورياغل عازمون على سفك دماء أهل فاس المتعاملين مع فرنسا، وبذلك تكون قد فشلت حرب الريف. فسلم محمد بنعبد الكريم نفسه مع أهله، واختار المنفى البعيد عوض الاعدام. وبعد مرور سنين على نهاية الحرب، اتخذ أبناء هؤلاء المتعاونين مع فرنسا، حرب بنعبد الكريم كشعار لتحرير المغرب (إلى يومنا هذا) من فرنسا واسبانيا، وثابر بعضهم في شعاراتهم وخطبهم، باستعمال تكتيك بنعبد الكريم لتحرير مدينتي سبتة ومليلية ...

الفصـــل الثالـــث عشـــر

الحركـــة الوطنيـــة الفاسيـــة
مـــن 1933 إلى 1956 ...

لقد ذكرنا بأن المقيم ليوطي كانت له سياسة شخصية بالمغرب وبالمغاربة، فكان يتعرف على كل الشباب المغربي الحي ويتصل به في مختلف المدن. ولما غادر المغرب سنة 1925 بصفة نهائية، انتقد عمله موظفان ساميان كانا من مساعديه، وهما مسيو بيلير وأوربان بلانك، فأقام المعمرون الطامعون ضجة حول عمله المتقرب والمتحبب للمغاربة، لكن المقيم العام الفرنسي الذي خلفه، وهو لوسيان سان، رغم أنه كان بجانب المعمرين، فقد انتقد بشدة نظرية الفرنسيين بالمغرب والذين يعتبرون السكان الأهليين مادة خام ضرورية، لكنهم في العمق، «ساقطين ونذلين»، ثم أن المغرب ما هو إلا أرض «صالحة للأعمال والمصالح التجارية»، وإذا ما وقعت زيادة في ميزانية، فقد وجب إيجاد ضرائب لا يسددها إلا المغاربة. فبهذا الفهم حول مهمة الفرنسيين بالمغرب، وقع الاستغلال والجشع، الشيء الذي أثار الشباب المغربي المثقف ودفعهم إلى كتابة مقالات تدين أعمال المعمرين الخبثاء. ففي عهد ليوطي، وقع طرد بعض المعمرين المخربين، وحاول ليوطي بدرجته كمرشال فرنسا أن يجبر طاعة المعمرين له وخصوصا من النخبة المهذبة المؤدبة التي تتبع سياسة اليد الممدودة إلى المغاربة.

فكم من مرة هاجم ليوطي بنفسه نواب الجزائر المعمرين والصحافة الاستعمارية في انتقاداتهم الهيمنية، لكن بعد نهاية مأموريته، قام المعمرون، وعلى رأسهم نخبة توسعية تعمل على خلق الفتنة بالمغرب بتصعيد البرابرة من حركة الشباب المغربي ضد العرب، لكن حركة الشباب المغربي المستوطن

للمدن، وبالخصوص بفاس، كانت للمعمرين بالمرصاد، وذلك على شاكلة الحركة الشبابية التركية. فمنهم من تكون بالمدرسة الغربية، وعلى رأسهم محمد بلحسن الوزاني ومنهم من تكون بالمدرسة الشرقية، ومنهم علال الفاسي، لأن الجيل ما سبق الوزاني وعلال كان بجانب فرنسا، ومنهم بعض العلماء، وكان قد افتخر بها المقيم العام الفرنسي نوجيس حيث كرر عدة مرات وقوف العلماء والشرفاء بجانب الاحتلال الفرنسي، ثم نبه في بعض خطاباته «بأن البرابرة الذين هم الأسياد الحقيقيون للبلاد، كانوا مع فرنسا، إذن لا خطر على مستقبل فرنسا بالمغرب ...»

وقد كشف نوجيس سرا آخر بأن علماء وشرفاء فاس قد أخبروه بأن الأعيان كانوا يشتكون إليه بمرارة من العواطف الوطنية التي اكتسبوها أبناؤهم من المدارس الفرنسية، فكانوا يطالبون بأن تعاملهم فرنسا بقساوة لترجعهم إلى الطريق المستقيم [1].

والمعروف أن جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي ادريس التي ظهرت بفاس ابتداءا من سنة 1923، كانت تنظم ندوات حامية حول مستقبل المغرب، فكان ليوطي يتخذ احتياطات جدية لمراقبتها على يد مساعده أوربان بلانك (Urbain BLANC)، وفي اعتقاده أن ذلك غير صعب بالنسبة إليه، حيث أن السلطان والمخزن والبادية كلها في يده وفي جانبه.

وقد أدت مختلف أنشطة الشباب المغربي المختلفة، في الرياضة والمسرح والسينما (التي نمتها إدارة الحماية الفرنسية على يد إدارة الشبيبة والرياضة Direction de la jeunesse et des sports) إلى إنشاء لجنة العمل المغربي سنة 1933 بتلقيحها بعناصر من التجار الصغار والحرفيين، وهذه اللجنة كانت تفتخر بالعمل التحريري الذي كان يقوم به في مظاهرات سياسية، المصري سعد زغلول بالقاهرة، أو بالعمل الانساني، للفرنسي الزعيم جان جوريس، ونادرا كانت تفتخر بالأعمال الحربية التي قام بها الزعيم الريفي محمد بنعبد الكريم الخطابي ضد الجيشين الاسباني والفرنسي خوفا من الادارة الفرنسية ومن المخزن الشريف.

---

1. كالعلامة أبو شعيب الدكالي الذي أدان علانية مساهمة ابنه عبد الرحمان في الحملة الوطنية بالقاهرة ضد الظهير البربري، وقد توفي عبد الرحمان وهو مرشد ديني للقوات المسلحة الملكية بعد الاستقلال.

أسباب التناحر بين المغاربة والأوروبيين

وقد وضعت لجنة العمل المغربي، التي يتزعمها الفاسي، محمد بلحسن الوزاني دفترا يسطر في مجمله، التذكير بتطبيق الاصلاحات التي وعدت بها الحكومة الفرنسية ولم تنجزها، ومنها توظيف الشباب المغربي في المناصب التي تتطلب المسؤولية المباشرة عوض الفرنسيين التي كانت لهم حصة الأسد في العمل السياسي والاداري، وكذلك ضعف التعليم للمغاربة والامتيازات الممنوحة للمعمرين ومنهج الادارة المباشرة وتفريق المسلمين في المغرب فيما بينهم، ويطلب دفتر الاصلاحات مساهمة المغاربة في الحكومة والادارة لبلادهم والتنقيص .من ميزانية الحماية ... الخ

لكن الأوروبيين المعمرين الذين كثر عددهم في الثلاثينات سخروا واستهزؤوا من هذا الدفتر لأنهم بدأوا يتذوقون الحياة الحلوة، وخصوصا أنهم بدأوا يعيشون مفترفين عن المغاربة (الأهليين) في أحياء جديدة، وأصبحوا يتنقلون بوسائل فردية. وقد وصف المقيم العام الفرنسي «بونصو» دفتر الاصلاحات لمحمد بلحسن الوزاني عبارة عن «أطروحة في القانون» أي أطروحة خيالية ...

وفي سنة 1934 بفاس مثلا، كان الأوروبي، أكان معمرا أو تاجرا أو موظفا يربح سنويا ما بين 15 و 17 ألف فرنكا، بينما لا يستطيع ربح في بلاده إلا نادرا (أقل من 6.000 فرنكا)، وكان الفاسي العامل في الأوراش أو في الدباغة أو في المعمل الأوروبي لا يربح إلا 1.500 فرنكا سنويا [1]. الشيء الذي يفسر الفرق الشاسع وتأزم الحالة الاجتماعية بالمغرب ما بين المغاربة وجهاز الحكم الاستعماري حيث أن التفاوت الطبقي كان كثيرا.

ولقد كان الفرنسي موظفا أو تاجرا في فاس لا يعرف من بؤس المغاربة إلا الخادمة التي ترد عليه من المدينة القديمة أو من ضواحي فاس، ولا يتنقل إلا بين المكاتب أو الفنادق أو النوادي، فالقطيعة أصبحت حقيقية ما بين الأوروبيين والمغاربة، يوم أن شيدت المدن الجديدة الخاصة بالأوروبيين كما كان أمر بها المقيم ليوطي، ليبقي المغاربة في عوائدهم القديمة ...

1. إقرأ كتاب : «الأرباب الأوروبيون في المغرب 1931 و1942 لروني جاليسون» — دار النشر «إيديف» صفحات 64 و 65 و 66

بطالة الشباب المغربي الجامعي

وكان عدد الفرنسيين يتزايد سنة عن سنة، فيحصلون بسهولة على وظائف في مختلف المستويات أو على تمليك أرض فلاحية أو صناعية ليستثمروا مشاريعهم بها، بينما كان المغاربة المتخرجون من جامعات الخارج أو من مدارس الداخل، لا يوظفون وخصوصا في فاس التي أرسل أعيانها (أو الخاصة بالعبارة الفاسية) بنيهم إلى أوروبا وإلى الشرق العربي، فأصبحوا عاطلين يتعاطون إما إلى السياسة أو النقابة أو إلى اللهو والترف ...

وكان جل الفاسيين الشباب الذين يحترفون السياسة يناقشون عادة حالة العرب والمسلمين ويتابعون عن كثب تطور الحركة التركية التي يتزعمها مصطفى كمال الذي أسس الدولة التركية مع متطلبات العصر، أي فرق ما بين الدين والدولة للقضاء على المخلفات الاقطاعية للخلافة العثمانية. فقد ساند الشباب الفاسي المثقف، حركة مصطفى كمال، بينما أدانها الأعيان والشيوخ والمستأنسون بجمع السلطة الدينية والسلطة الدنيوية في يد واحدة [1].

وكان من زمرة هؤلاء الشباب، الفاسي محمد المنجرة، وهو تاجر كبير وعضو معا في مجلس إتقان التعليم، والذي كان قد لاحظ بأن الفرنسيين هم أكثر تحفظا من المغاربة في احتفاظ المسلمين بنظام تيوقراطي إسلامي أكل عليه الدهر وشرب، ويعني هذا انتقاد سياسة ليوطي في الاحتفاظ بسلطنة مغربية مطلقة تيوقراطية ومنعزلة عن الأمة وبدون دستور ...

ولقد ذكر في أحد التقارير السرية الفرنسية بأن المغاربة المسلمين يعجبهم نظام دستوري ديمقراطي، وما حركة الشباب الفاسي إلا تكملة لحركة «المغرب الفتي» التي نشطت سنة 1908 بزعامة محمد بنعبد الكبير الكتاني والتي كانت تطالب بالدستور ...

وتخوف الفرنسيون من تطور هذه النخبة الشابة التي تطالع مجلات الشرق، ومن جملتها مجلة الهلال التي تتحدث عن لينين وغاندي، ثم تتحمس

1. من تقرير عام للمكلف بالتعليم المغربي «بول مارتي» حول تأثير حوادث الشرق على الرأي العام الفاسي ... 18 نونبر 1922.

هذه النخبة للعراق وإيران في معركتهما للتملك في البترول الذي اكتشفه الغربيون في بلادهما، ولا تهتم هذه الشبيبة الفاسية قط بالخلافات القائمة بين العلماء الفاسيين عن شرعية وجود الزاويات أو عبادة الأولياء.

لذلك استخدم الفرنسيون عدة وسائل قمعية، منها النفي والسجن أو الاغراء بالامتيازات، وخصوصا عندما وقعت شكايات حول تطبيق «الباتانتا» على المغاربة حيث رفعت احتجاجات لدى السلطان مولاي يوسف، كذلك وقع تحقير وإهانة الأهليين من طرف المعمرين ومن طرف السلطات وخصوصا ابتداءا من عهد المقيم العام الفرنسي «بيروطون» المكنى بالديكتاتور والذي كان قد سبق له أن قمع الوطنيين التونسيين أيام كان حاكما على باية تونس.

ثــورة المغاربــة على الفرنسييــن

كان المعمرون الفرنسيون، وعلى رأسهم أرباب المهن، يدلون بخطابات مهينة للمغاربة، وبالخصوص من لدن التجار والفلاحين الكبار الذين ينافسونهم في الاثراء أو ضد المثقفين المغاربة حيث كان يحقد عليهم بعض الموظفين أو الضباط الفرنسيين، نظرا لعلو ثقافتهم وتربيتهم الغربية.

وقد وقع لشاب فاسي حَدثٌ حيث كان يطالع في يوم من سنة 1925 بحديقة ابوجلود كتابا جيدا من صنف الأدب الفرنسي. فبادره ضابط فرنسي استعماري وخطف منه الكتاب، ورمى به بغضب على الأرض، لقد كان الضابط لا يتحمل أن يكون شاب مغربي متعلما أحسن منه [1]. فهذا الاحتقار وهذه العجرفة للمعمرين الذين كانوا ينعتون الفاسيين المتعلمين بأخس النعوت، أدت إلى غضب الشبيبة المغربية حيث انخرطت بحماس في جمعيات ثقافية عربية اسلامية، ثم أصبحت هذه الجمعيات وطنية سياسية تفرق بوضوح ما بين الشعبين المغربي والفرنسي حيث كانت نية أصحاب مؤسسي الحماية هو إدماج الشبيبة المغربية في الحضارة الغربية ثم تركيب إدارة تابعة لفرنسا على شكل ما

1. لقد حكى هذه القصة الواقعية أستاذ التاريخ الفرنسي «صال فرانك» الذي كان في بدايته أستاذا بثانوية مولاي ادريس بفاس.

وقع في الجزائر وفي جزر كوادولوب، ومارتينيك، وكاليدونيا الجديدة الملحقة بفرنسا.

ولابد أن نسجل هنا تصريح أحد مسيري الشبيبة الفاسية، حسن أبو عياد سنة 1930 «بأن الذي أثار المغاربة ضد الفرنسيين، هم الفرنسيون أنفسهم، لا شكيب أرسلان ولا الشرقيون ولا الشيوعيون»، وقد وقعت ملاكمة شادة في شوارع فاس ما بين ابن الوزير الجباص وبعض الجنود الفرنسيين، فأحدثت ضجة كبـرى.

الفصـــل الرابـــع عشـــر

مسيـــرة الحركـــة التحريريـــة...

ولابد أن نذكر هنا بأن الشباب الفاسي المتحضر كان متعطشا منذ سنة 1920 إلى باريس وحضارتها، لا لأجدير عاصمة الثورة الريفية، ولكنه كان يرى بأن الحماية الفرنسية عرقلة لتطوره وإدماجه في الوظيف والشغل كجل الفرنسيين. فرغم تعليمات ليوطي المتكررة حول توظيف الشبيبة المغربية، فإنها لم تحترم وحتى لو وظف نزر قليل منهم، فقد وضعوا في مكاتب محتفرة ولا يقومون بأي شيء، فتمنح لهم رواتب منخفضة أو منحة سنوية ليداوموا في طاعة فرنسا.

فجورج هاردي «Georges Hardy» الذي كان مسؤولا عن التعليم والصحافي المشهور «روبير مونطاني» كانا قد وضعا تقارير عن التعليم، ويذكرون بوضوح القولة المشهورة «أن لا ديبلومات مرتفعة للمغاربة الذين سيصبحون مليئين بالكبرياء وبالطموح في المناصب العليا». فقد وجب إذن تخفيض مستوى التعليم للمغاربة.

لكن وجب أن يذكر بأنه في السنوات الأخيرة من إقامته بالمغرب، قام ليوطي بتعيين بعض الشبان في وظائف مخزنية من جميع المدن المغربية، فاختار من فاس أبناء العائلات المطيعة لفرنسا، كعبد الكبير الفاسي وعمر بن عبد الرحمان التازي وعبد الواحد لحلو والتهامي المقري وعمر بنعبد الجليل وعباس بنجلون ومحمد بنعبد الجليل الذي اعتنق المسيحية سنة 1928 بتأثير المستشرق لويس ماسينيون ... وقد تكونوا في الخارج بسبب سعة عائلاتهم المادية ...

ثم توالت على المغرب وفود الطلبة المتخرجين من معاهد عالية شرقية وغربية ــ وكانت الحصة الكبرى من النخبة الفاسية نظرا لقدرة عائلاتهم على

1. بحيث أنه في سنة 1923، أحصي من بين الأربعين عضوا في جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي ادريس، ربع هذا العدد وظف في مختلف الادارات بينما ذهب الباقي ليسير شؤون عائلاتهم.

تحويل دراسة أبناءهم [2]،ونمت الشبيبة المغربية الجامعية، وكان مصيرها البطالة وكثرة الاهانة والاحتقار من طرف المعمرين المدنيين والعسكريين.

فانطوى بعضها في حركة لجنة العمل المغربي التي نشطها الشاب الفاسي ذوا الأصل من قرية وزان، محمد بلحسن الوزاني، والذي كان يتقن اللغتين العربية والفرنسية ومحصلا على إجازة في العلوم السياسية. فساهم في نشر جريدة بمساعدة بعض الفرنسيين المتحررين، نذكر منهم لونجي، حفيد كارل ماركس. فكانت تطالب هذه الجريدة في جل مقالاتها بتطبيق إصلاحات عصرية بالمغرب كتطبيق نظام دستوري عصري على شكل فرنسا، لكن الاقامة العامة الفرنسية تحت مسؤولية «لوسيان سان» و «بونصو» و «بيروطون»، كانت تتابع نشاط لجنة العمل المغربي من قريب لئلا تخرج عن مطالبها المعتدلة داخل إطار الحماية الفرنسية. فكانت الاقامة بجانب هذا تنظم من حين إلى آخر رحلات اسفارية للشباب المغربي المثقف إلى فرنسا لالهائه عن مقاصده السياسية ولتعلمهم العادات الفرنسية وذلك بالتعرف على المسارح والمتاحف والخزانات، وكذلك على الفتيات الفرنسيات المتحضرات المثقفات، بحيث كان ينوي بعضهم التزوج بهن.

فكان يختار جل هذا الشباب من جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس التي كانت شبه محروسة من طرف السلطات. وكان عدد أعضاءها يوازي الأربعين سنة 1923، فأصبح عددها مائة، سنة 1925، ثم ازداد العدد مع السنين ... ثم نظمت الادارة الفرنسية على يد إدارة الشبيبة والرياضة مقابلات رياضية لم تكن قبلا بالمغرب، فكونت للفاسيين فرقة «الهلال الرياضي» المشهورة وعقدت لهم محاضرات وأمسيات سينمائية يتنعم بها الشباب الفاسي النادر، وكان يحضرها أكثر من مائتي فردا يتعلمون دروس تحضيرية مدرسية.

فكانت تبرز في تلك السنوات أسماء لامعة لدى الشباب الفاسي كالحبيب المالكي، أستاذ بثانوية مولاي ادريس، وعبد الله الفاسي، وعبد الحي الكتاني، ومحمد بلعربي العلوي، والجزائري محمد بن رحال.

2. منهم بعض العائلات التي أرسلت أبناءها إلى بريطانيا العظمى مثلا ...

وحول لجنة العمل المغربي (ثم الوطني فيما بعد) والتي تكلمت عنها أنفا، وردت عدة عناصر شابة متخرجة من كليات الغرب والشرق الذي كان يعيش قبل الحرب العالمية في شبه القرون الوسطى، فتخالفت العناصر الوطنية المسيرة في مختلف المدن المغربية، فأنشئ بفاس حزبان مختلفان : حزب يساند الرجعية والتأخر بإلحاق المناضل المغربي إلى الماضي السحيق بأساطيره وخرافاته، والتي أكل عليها الدهر وشرب، وحزب يساند التقدمية بكل ما فيها من تكوين دستوري وسياسي واجتماعي وثقافي. وأمام افتراق الحزبين المذكورين، وهما حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال بسبب عدم الامتزاج بين قائدي الحزبين بسبب تكوينهما المعاكس، تماطل الكفاح ضد الاستعمارين الفرنسي والاسباني بسبب نزاع الحزبين ووحدة الصف بينهما، فخرجت حركة تمردية مسلحة بالمغرب، وبالخصوص في الدار البيضاء وفي فاس، وادعى كل من الحزبين أن له نصيب فيها، وكادت الحركة المسلحة أن تنزلق بالحكم الفردي بعد الاستقلال الاسمي الذي منحته فرنسا لمستعمرات ما وراء البحار، فتدخلت فرنسا عاجلا للقضاء على الحركة المسلحة بمساعدة حزب الاستقلال، وذلك بتسليم معجل لصالحه الجهاز البوليسي والدركي والقضائي، فاستولى الحزب في بداية الاستقلال على الادارة المغربية، لكن وقعت بمدينة فاس فتن بين الحزبين المذكورين أدت إلى اختطاف أعضاء بارزين من حزب الشورى والاستقلال والفتك بهم وكذلك من أعضاء المقاومة المسلحة [1].

وجوه فاسية بارزة في الوطنية

لقد ذكرت بأنه قد خرج من فاس شابان مختلفان في الثقافة والتفكير السياسي. وقد كان هدفهما بادئ الأمر تطبيق فصول عهد الحماية بإخلاص، لكن، تطور كفاحهما أمام عناد المستعمرين. فدخلا المعركة المصيرية وهدفهما تحرير المغرب في إطار تصفية الاستعمار في آسيا وفي أفريقيا، وهذه التصفية بدأت بوادرها منذ الحرب العالمية الثانية.

---

1. اقرؤوا كتاب : «دار بريشة أو قصة مختطف» للمهدي المومني التجكاني.

مناضلون سياسيون ضد الحماية الفرنسية، خرجوا من فاس



الشيخ محمد بلعربي العلوي، قاضي بفاس
ورد مع أبيه من تافيلالت



العلامة محمد علال الفاسي، أستاذ وصحفي بورجوازي



محمد بلحسن الوزاني، صحافي وسياسي بورجوازي

مقاومون في فاس



بعض المتهمين المقاومين بفاس أمام
المحكمة العسكرية، وسيعدمون بالرصاص



الشهيد عباس المسعيدي، أحد رؤساء جيش التحرير المغربي. وهو ابن فلاح سيختطف وسيقتل بفاس على يد أنصار الحزب البورجوازي، حزب الاستقلال سنة 1956



السيد عبد الكبير الفاسي، أحد ممولي المقاومة المسلحة بالخارج، وصاحب خريطة «المغرب الكبير» من طنجة إلى نهر السنغال بعد الاستقلال

وهذان الشابان، هما محمد بلحسن الوازاني ومحمد علال الفاسي. فبعد سنوات من العمل المشترك، وقع الخلاف المنتظر بينهما، فأسس كل واحد منهما حزبه، فحزب الشورى والاستقلال يدعي المفاوضة مع الفرنسيين على وضع الدستور ومجلس نيابي، وذلك على شكل الديمقراطية البرلمانية. وحسب الآية القرآنية المشهورة : «وأمرهم شورى بينهم»، ويطلب الوزاني أن يختار الحكام الصالحون لعصرنة المغرب، أما محمد علال الفاسي، فقد كان يطالب

بتخلي الفرنسيين والاسبانيين عن كامل التراب المغربي ليعيش في امبراطوريته السعيدة، التي كان لها مجد في الغابر على عهد الدول التي تداولت في المغرب الكبير المنشأ في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين أو غيرهم.

ولا يغرب عن بال أحد بأن السيد علال الفاسي كان يطالب طول حياته بالحدود التاريخية القديمة للمغرب، وبقي خلفاءه مستمرين في الأسلوب العلالي الذي اعترف رغم أنفه سنة 1969 بسيادة موريطانيا.

تطاحنات حزبية على صعيد فاس

قبيل الاستقلال، تكونت خلايا وطنية مسلحة للقيام بالعمل الفدائي ولم يكن يساندها إلا بعض التجار بالدار البيضاء وبفاس، وكان جل أعضاء هذه الخلايا ينتمون إلى الحرف التقليدية، فنشطت هذه الخلايا بصفة مستقلة وأرهبت عملاء الاستعمار وحلفاءهم وجواسيسهم، وخصوصا لدى الزوايا المتعاملة مع الحماية التي دخلت إلى المغرب، وعلى رأس هذه الزوايا، العلامة الفاسي عبد الحي الكتاني الذي كان له حساب مع الدولة العلوية بسبب مقتل شقيقه محمد الكتاني على يد السلطان مولاي عبد الحفيظ.

لكن ما أعلن عن اتصال الفرنسيين ببعض الوطنيين، وهم من حزب الاستقلال (عمر بنعبد الجليل من فاس) ومن حزب الشورى والاستقلال (عبد الهادي أبو طالب وأحمد بنسودة والتهامي الوزاني من فاس) وكذلك من بعض الرؤساء التقليديين كالباشوات ومنهم الباشا الفاسي، الفاطمي بنسليمان وقواد، وقع اتفاق عاجل يؤدي إلى الاستقلال الاسمي، ولكن شريطة عدم التعامل مع المقاومة المسلحة في الجبال والمدن والقضاء عليها في وقتها، لأنها كانت تهدد مصالح الفرنسيين [1].

وبالفعل، رفض قادة حزب الاستقلال المحلي بفاس مساندة ومساعدة جيش التحري المار بفاس، وعلى رأسهم الحاج أحمد مكوار [2].

1. اطلعوا الفصل الخاص بالأزمة المغربية في كتاب الحكومة الفرنسية السابق إدخار فور الذي نظم لقاء إيكس ليبان بسرعة، وعنوان الكتاب «مذكرات».

2. ولقد ذكر إلى ابن عمي العقيد عبد الغني الورديغي أنه بصفته أحد قادة جيش التحرير، حمل رسالة خطية من رئيس الجيش نديرابوزار ليطلب من مكوار إعانة ومساعدة مالية فرفض وطرده من بيته وهو يهدده بالشرطة ...

فكان من أثر ذلك بداية تصفية المقاومة على يد البوليس الذي كان يرأسه محمد الغزاوي، وهو قطب من حزب الاستقلال، بدعوى الفوضى والاضطراب للسلطة الجديدة والبلاد، فوقعت اختطافات واغتيالات في جميع المدن المغربية، منها مدينة فاس التي كانت بدورها مركز الاختطاف والاغتيال بها لقدماء المقاومة [3].

اغتيال عباس المسعيدي بفاس

وقد اشتهر بهذه المدينة، اختطاف وقتل أحد قادة جيش التحرير المغربي بفاس، وهو عباس المسعيدي وذلك على يد بعض قادة حزب الاستقلال حيث كان يدعي بحكم مستقل عن الأحزاب، يرتكز على فوهة البندقية لا على المداهنة السياسية مع فرنسا التي كانت تحارب بكل قواها الجزائر الشقيقة.

وقد حزنت الطبقات الشعبية بفاس على موت عباس المسعيدي الذي ورد في زيارة ليلية لأصدقائه بالمدينة الدينية ــ فاختطف وقتل في ومض قليل ــ وقد نظم القصر الملكي جنازة وطنية في شأنه، وواعد الملك محمد الخامس بالاعتناء بعائلته الصغيرة، غير أن المندوبية السامية للمقاومة التي يسيرها الآن المسمى محمد بنجلون لم تكترث بعائلته، وخرجت هذه العائلة إلى البؤس والضياع بعد ما بيع أثاثها في الجوطية، حسب ما ورد في الصحافة المغربية فتأثر الرأي العام المغربي [4].

كذلك اختطف واغتيل بعض منشطي المقاومة المسلحة بفاس، فلم ينج من يد الشرطة الاستقلالية إلا القليل، حيث هرب بعضهم ليختبئ في دار عامل إقليم تافيلالت عدي أو بيهي الذي كان يعادي حزب الاستقلال، فقد حوكم فيما بعد ثورته ضد الحزب، ومات في ظروف غامضة لم يوضحها التاريخ بعد.

فرغت الساحة للسياسيين، فنهض حزب الاستقلال باستيلائه على وزارة الداخلية وفي غفلة الفراغ الحكومي، قتل وفتك ببعض قادة حزب الشورى

3. اقرؤوا كتاب : «دار بريشة أو قصة مختطف».

4. اقرؤوا «الأسبوع الصحافي» للسيد مصطفى العلوي في هذا الموضوع.

والاستقلال، وقُبِضَ على رئيس جيش التحرير المرابط بجبال الأطلس، الشهيد عبد القادر أبوزار، وقتل العقيد محمد البقالي بخنيفرة إلى أن غير عامل الاقليم برادة ذو النزعة الاستقلالية، فرجعت الأمور رويدا رويداً إلى نصابها بعد بداية انشقاق حزب الاستقلال سنة 1959، وبعد نشر ظهير الحريات العامة الذي أثبت تعدد الأحزاب والنقابات. فعرفت فاس إنشاء أحزاب ونقابات مع تسلسل السنوات وتداولت على المجلس البلدي للمدينة عناصر سياسية غير منسجمة تطرح بينها مناقشات ديمقراطية صريحة، لكنها لا تلبي في الغالب مطالب الفاسيين نظرا لقلة الامكانيات ولسوء التدبير الإداري الذي يرجع إلى قلة التجربة والحنكة، ووضع الاطار في المكان الغير اللائق.

فقد مر في السنين العشر الأخيرة على كراسي المجلس البلدي، حزبان معارضان للقصر الملكي، وهما حزب الاستقلال وحزب الاتحاد الاشتراكي، ولكنهما لم ينجزا إلا النزر اليسير ولربما لا شيء، بينما العمالة أو الولاية التي لها السلطة العالية حققت الكثير، لكن الهجرة القروية والبطالة استفحلت ولم يعد أدنى حظ لهذين المشكلتين العويصتين، اللهم إلا الهجرة إلى المدن الأخرى أو الخارج.

ـ النهايــة ـ

الخاتمة

تغيرت مدينة فاس على مرور السنين وخصوصا بعد الاستقلال حيث اجتاحتها الهجرة القروية القوية، فاضمحلت معالم المدينة القديمة حيث هجرها سكانها الأقدمون، فسكنوا المدينة الجديدة حيث وسعوها في البناء حتى أصبح التصميم المديري لفاس يغير كل عشرين سنة، وسبب ذلك، هو أن فاس التي كانت قبل الحماية، عاصمة المملكة، أصبحت المدينة الصناعية الثانية، فتغير وزنها الاجتماعي، وورد عليها فلاحون من تافيلالت والريف وغيرهما من المناطق.

ففي سنة 1956، كان عدد سكان فاس لا يتعدى 180.000 نسمة، فأصبح اليوم هذا العدد يفوق 800 ألف، أي أكثر من أربع مرات، ويسكن ثلث هؤلاء السكان في مساكن قذرة لا تعرف النور والهواء، فأضحت المساكن تستقر في هضبات المدينة، ودخل الفلاحون المدينة القديمة حيث هجرها اغنياءها ليبادروا أعمالهم بالرباط أو بفاس، فأصبحت المدينة القديمة فقيرة لا تخفي بؤسها، فأطفالها في كل حي يتكدسون، وشبابها يتيه بدون شغل ولا عمل، لأن عدد الوظائف المنشأة في القطاعين العمومي والخصوصي لا تكفي ...

فقد يتحدث الفاسيون بأن 50 ألف شاب حصلوا على الشهادة الجامعية ويعيشون على محصول عائلتهم الفقيرة، وأن الهجرة القروية لا زالت مسترسلة، لأن الاصلاحات الفلاحية لم تجد نفعا رغم تدخل الصندوق النقدي الدولي، ثم تستقر هذه الهجرة باستمرار بمركزي ابن سودة وباب افتوح.

لهذا يتوجب أخذ تدابير حازمة في إعطاء الكلمة الحقة للجماهير الفاسية، وذلك بالتصويت في جو من الحرية والديمقراطية على ممثليها الحقيقيين ليتحملوا مسؤولياتهم ولئلا يكونوا مجالس صورية لا سلطة لها ولا

كلمة. لأن كل ما انتخب عليه في مجالس إلى يومنا هذا منذ الاستقلال لم يكن إلا مدسوسا ومزورا ومساندا من طرف السلطات، ويحكى أنه وقعت انتخابات في فاس، فكان من المنتظر أن يسقط مستشار ذوجاه معروف، فحمل بنفسه صندوق الاقتراع أمام أعين أعضاء مكتب انتخاب دائرته وأفرغه من محتواه، ووضع البطاقات «المصوتة» عليه، فملأ الصندوق بنفسه، وأجبر أعضاء المكتب لقبول انتصاره بفضل نفوذه، وأصبح بذلك مستشارا ونائبا معا لمدينة فاس إلى يومنا هذا ... وأنا في نظري أن العنف والتزوير سوف لا يحلان المشاكل الاجتماعية والسياسية لمدينة فاس التي سيصبح سكانها مليون نسمة سنة 1995، وقد يقال في المغرب أنه عندما تتحرك فاس، تنزعج الرباط ولربما المغرب كله ...

اسم العائلات التي كانت ولا زالت متعايشة في فاس منذ تأسيسها

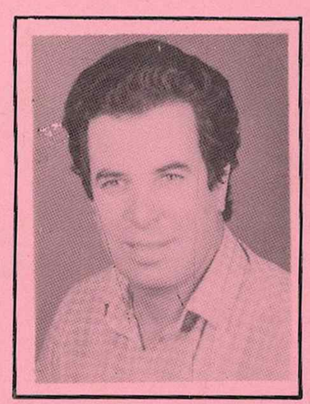
وأذكرها على سبيل أهميتها من ناحية الجاه والمال والعلم، فهي :
ابن جلون، برادة، العلمي، العلوي، العمراني، البقالي، البلغيثي، بلخياط، بن شقرون، بن كيران، بناني، بن زاكور، بنيس، بنونة، أبوزوباع، الشرايبي، الداودي، الوزاني، الودغيري، الفهري، الفيلالي، كنون، الدسولي، الحسناوي، الادريسي، الكتاني، الحلوي، الحريشي، العراقي، الأزرق، اللبار، ميكو، المرنيسي، الرايسي، الصقلي، السرغيني، الصفريوي، السلاوي، السوسي، التدلاوي، الطاهري، التازي، اليعقوبي، الزموري، الزرهوني، الزروالي الخ ...

مصـــادر الكتـــاب
بالفرنسيـة والأنجليزيـة والاسبانيـة

— Un Crépuscule d'Islam de André Chevillon. Edition Paris 1923.
— Lawrance Harris with Moulay Hafid - Londres 1909 - Le Maroc disparu.
— Pierre Loti : Au Maroc - Paris - Edition de 1928.
— Le jardin et la Maison arabe au Maroc - Paris 1926.
— Michaux Bellaire : Conférences in Archivres - Maroc 1927.
— Lyautey et l'Institution du Protectorat français au Maroc 1912 - 1925 de Daniel Rivet - L'Harmattan.
— Pierre Odinot - La Grande route directe de Fès à Marrakech au XVI siècle.
— Henri Terrasse : La Mosquée des Andalous à Fès,publication de l'institut des hautes études marocaines.
— Les sept printemps de Fès du Docteur Etienne Secret - Tours - Impression.

فصـــول الكتـــاب

مؤلف الكتاب



عبد الرحيم الورديغي

ازداد المؤلف عبد الرحيم الورديغي بمدينة الرباط سنة 1937

- حاصل على شهادات الدراسات الثانوية والعالية.
- مقاوم سابق في المقاومة الحضرية وفي جيش التحرير من سنة 1953 إلى سنة 1956، وحامل البطاقة رقم 524345.
- تقلب في مهنة الصحافة والوظيف العمومي، كوزارات الداخلية والفلاحة والمالية والصحراء وقام بها بمسؤوليات هامة ...
- اختار تأليف الكتب منذ سنة 1970 وخصوصا حول المقاومة والوطنية وتاريخ المغرب ومدنه ورجاله.

مطبعة المعارف الجديدة
زنقة الرخاء — الحي الصناعي
الهاتف : 08/09/15 7947
الرباط